

كتاب مجلة " كَلِمَةُ حَق " (15)
هدية العدد (26) من مجلة " كَلِمَةُ حَق " سبتمبر - 2019

مختصر كتاب

التاريخ الشعبي للولايات المتحدة

(من ١٤٩٢)

هوارد زن

هذه السلسلة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

لو أفنى الإنسان عمره في قراءة ما تكتبه الأقلام لم يبلغ أن ينهي منها إلا قدراً ضئيلاً، فالعقول لا تتوقف عن الإنتاج والمطابع لا تتوقف عن الهدير، وفي عصرنا هذا كاد الناس كلهم أن يكونوا أصحاب أقلام ولهم كتابات، فما عليك إلا أن يكون لك حساب على موقع تواصل اجتماعي فيكون قد صار لك منبر عام تكتب فيه.

ومن بين الكثير من الغثِّ قليلٌ من السمين، فأودية العقول كثيرة ونتاج الفلاسفة كغابة ضخمة متشابكة.. فالعلم النافع بالنسبة لبحور الأفكار كالدرر واليواقيت في أعماق البحار.

والعلم الذي تحتاجه أمة مهزومة مستضعفة تريد أن تنهض ليس كالعلم الذي تحتاجه الأمم في حال رفاهيتها ورخائها.. فإن أمتنا أحوج إلى فهم الدين الصافي الواضح كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي بحاجة إلى فهم الواقع المعاصر لتُحسِن إصلاحه بما لديها من الدين، وتحتاج إلى علوم النهوض وبناء الأمم أكثر من حاجتها إلى علوم الترف والزينة والزخارف. وفي طليعة علوم النهوض: فهم الدين والسياسة والتاريخ والعلوم الأمنية والعسكرية.. فالمكتوب في هذه الأبواب أولى بالعناية والاطلاع والدراسة من غيره.

وقد أنعم الله علينا في "مجلة كلمة حق " بفكرة أن نقدم مع كل عدد كتاباً كهدية، ونحن بين أن نستخرجه من كتاب مهم، أو أن يكون تلخيصاً لكتاب مهم، أو أن يكون ترجمة لتقرير مهم.. وهكذا، نختاره بحسب ما نقدِّر أهمية الاطلاع عليه.

ونرجو أن يعيننا القراء الكرام بترشيحاتهم ومجهوداتهم، فالباب مفتوح لكل مجهود.. نسأل الله أن يكون علما نافعا وعملا صالحا خالصا لوجهه الكريم

مجلة
كلمة حق

الفصل الأول

كولومبس والهنود الحمر والتقدم

عندما نزل كولومبوس ومن معه عام **١٤٩٢** إلى جزر البهاما، هب هنود "أراواك" لتحيتهم, فقدموا لهم الطعام والماء والهدايا.

كان كل هنود العالم الجديد معروفون بالكرم ومشاركة ما يمتلكون مع الآخرين، ولم تبرز مثل هذه المزايا والخصال الطيبة في أوروبا في عصر النهضة، والتي لم تعرف سوى دين الباباوات، وحكومات الملوك، والسعار من أجل المال الذي اصطبغت به الحضارة الغربية ورسولها الأول إلى الأمريكتين -كريستوفر كولومبوس.

يقول كولومبوس: "بمجرد أن وصلت إلى أرض الهنود, وعلى أول جزيرة اكتشفتها, أخذت بعض أهلها عنوة كي يدلوا بمعلومات عما تحويه أراضيهم من أشياء".

كانت أهم معلومة يبحث عنها كولومبوس: أين الذهب؟

لقد أقنع ملكة وملك إسبانيا أن يمولا رحلته تلك، كما توقع أن الثروة والخير يقعان على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي -في الهند وآسيا، كان يعرف أن الأرض مستديرة، وأنه يستطيع أن يبحر غربًا، كي يصل إلى الشرق الأقصى.

كانت إسبانيا قد توحدت قبل عهد قريب، وأصبحت واحدة من الدول الحديثة. كان ٢% فقط من سكانها يمتلكون ٩٥% من أرضها. وكان يقوم بخدمة هؤلاء النبلاء معظم السكان وغالبيتهم من الفلاحين. وكانت إسبانيا قد ارتبطت بالكنيسة الكاثوليكية، وطردت اليهود والمسلمين.

كان المعتقد السائد أن آسيا تحوي كميات كبيرة من الذهب ومن الحرير والتوابل -أيضًا.

ولما كان الأتراك قد سيطروا على القسطنطينية وعلى شرق البحر المتوسط، وسيطروا بالتالي على الطرق البرية إلى آسيا فقد أصبح الاحتياج إلى طريق بحري لآسيا ملحًا للغاية.

تمت الصفقة بين كولومبوس وملوك إسبانيا، ففي مقابل جلب الذهب والتوابل، أخذ كولومبوس وعدًا بالحصول على١٠٪ من أرباح رحلته والإمارة على ما يكتشفه من أراض، والشهرة التي ستجلبها رتبته الجديدة: "أدميرال بحر المحيط".

لم يكن لكولومبوس أن يصل إلى آسيا بأي حال من الأحوال؛ فقد كانت تبعد آلاف الأميال عمّا قدره؛ إذ لم يكن العالم صغيرًا كما تصور هو ومعاصروه، لكنه كان محظوظًا فبعد أن قطع ربع الطريق وصل إلى أرض مجهولة غير معروفة المعالم تقع ما بين أوروبا وآسيا، هي الأمريكتين، كان ذلك في بداية أكتوبر ١٤٩٢، بعد ثلاثة وثلاثين يومًا من الإبحار.

انتهج كولومبوس أسلوب العنف مع الهنود على الرغم من استقبالهم وترحيبهم به وبرجاله؛ فقد أخذ الكثير منهم سجناء، وقتل الكثير منهم، كما قرر أخذ عدد منهم كعبيد وإرسالهم إلى إسبانيا.

قال كولومبوس في تقريره: ”إن الهنود ساذجون للغاية، ويتعاملون مع ممتلكاتهم بشكل لا يصدقه أحد, إذا سألتهم شيئًا مما يملكون لا يردون عليك بالنفي أبدًا، بل على العكس إنهم يعرضون مشاركة ما يملكون مع أي شخص“.

اختتم تقريره إلى ملك وملكة إسبانيا بطلب العون مقابل أن يجلب لهما في رحلته القادمة ”ما شاءا من الذهب، وعدد ما يطلبانه من عبيد“.

وتجدر الإشارة إلى أن تقرير كولومبوس كان يصطبغ بصبغة دينية فقد جاء فيه: ”وهكذا فإن الرب الخالد، إلهنا, يمنح النصر للذين يسلكون طريقه مهما كانت الصعاب“.

ولأن تقريره كان مليئًا بالوعود والآمال جاءه العون من إسبانيا في سبع عشرة سفينة، وأكثر من ألف ومائتين من الرجال. كان الغرض واضحًا: العبيد والذهب.

بدأ الهنود في الفرار وترك قراهم لما علموا بنية الأوروبيين.

تـم أخذ أعداد ضخمة من الهنود ووضعهم فــي حظائر، ثم انتقوا أفضلهم وتم شحنهم لإسبانيا كعبيد. مات عدد منهم في الطريق، والباقي وصل حيًّا حيث تم عرضهم للبيع في مزاد أشرف عليه رئيس الشمامسة.

أصدر كولومبوس -من قاعدته في هاييتي- أوامره للهنود بوجوب تسليم كمية محددة من الذهب كل ثلاثة أشهر، ومن لم يفعل ذلك كانت تقطع أيديهم وينزفون حتى الموت.

تفشــى الانتحار الجماعي بين الهنــود عن طريق تجرع الســم هربًا مما يحدث لهم، بل أقدموا على قتل أطفالهم الرضع بأيديهم كي لا يقعوا في أيدي الإسبان.

وخلال عامين مات نصف سكان الهنود في هاييتي -عددهم الأصلي **٢٥٠** ألف نسمة- ولما لم يكن هناك حقول للذهب، أصبح الهنود مصدرًا أساسيًّا لجلب العبيد، حيث تم تسخيرهم بوحشية في ضياع شاسعة حيث مات فيها آلاف مؤلفة. يقول أحد التقارير: إنه بحلول **١٦٥٠** لم يبق على الجزيرة أحد من هنود أراواك الأصليين.

صامويل إليوت موريسن، مؤرخ هارفارد الشهير, يعتبر أبرز من كتب عن كولومبوس. يتناول موريسن عمليات الاستعباد والقتل التي حدثت على أيدي كولومبس قائلاً: **"لقد أدت السياسة الوحشية التي بدأها كولومبوس واتبعه فيها من خلفوه, إلى الإبادة الكاملة".**

وقد قال موريسن ذلك في صفحة واحـدة، مدفونة بين سطور وصفحات قصة بطولية عظيمة.

وربما يستطيع المرء أن يكذب على الماضي، أو أن يُسقط حقائق من شأنها أن تؤدي إلى نتائج قد لا يقبلها.

والحق أن موريسن لم يفعل هذا ولا ذاك؛ فهو يرفض أن يكذب في قصة كولومبس، كما أنه لا يُسقط قصة القتل الجماعي التي قام بها كولومبس وأعوانه ضد السكان الأصليين، بل إنه يصفها بأكثر الكلمات قسوة وهي الإبادة.

لكنه يفعل شيئًا آخر، إنه يذكر الحقيقة سريعًا, ثم ينصرف إلى أشياء أخرى أكثر أهمية بالنسبة له. وللكذب الصريح ولإسقاط بعض الحقائق ميزة كبيرة، تتمثل في إثارة القارئ ضد الكاتب الذي يكذب أو يسقط الحقائق. لكن أن تذكر الحقائق ثم تدفنها وسط ركام هائل من المعلومات فإن هذا يعني أنك تقول بهدوء: نعم لقد حدث قتل جماعي، لكنه ليس بهذه الدرجة من الأهمية بحيث يؤثر في أحكامنا النهائية، كما أنه لا ينبغي أن يؤثر فينا تأثيرًا كبيرًا.

إنني أرى أن التأكيد على إبراز بطولية كولومبس وأتباعه كملاحين ومكتشفين والتهوين من جرائم الإبادة التي ارتكبوها، إنما هو اختيار أيديولوجي يقدم تبريرًا لما حدث.

وليس معنى كلامي أننا يجب في كتابتنا للتاريخ أن نتهم ونحاكم وندين كولومبس غيابيًّا فهذا أمر فات أوانه، ولن يكون إلا تمرينًا أكاديميًّا عديم الجدوى. المشكلة تكمن في القبول السهل لفكرة أن الفظائع التي ارتكبت كانت -رغم فظاعتها- ضرورية وثمنًا كان لا بد من دفعه من أجل التقدم. ولا زالت مصداقية هذه الفكرة قائمة معنا حتى اليوم (حدث ما حدث في هيروشيما وفيتنام من أجل إنقاذ الحضارة الغربية، وكان ما حدث في المجر وجزيرة كرونشتات من أجل إنقاذ الاشتراكية، أما الانتشار النووي فإنه من أجل إنقاذنا جميعًا)، ويكمن أحد أسباب استمرار هذه الفظائع معنا حتى اليوم في أننا تعلمنا كيف نقوم بدفنها وسط حقائق أخرى كما يتم دفن النفايات النووية في حاويات ببطن الأرض. لقد تعلمنا أن نولي هذه الفظائع والجرائم نفس النسبة من الاهتمام الذي يوليه المدرسون والكتاب في أكثر الكتب والفصول الدراسية احترامًا. والمفارقة أن كلام الباحثين، الذي تمليه موضوعيتهم الظاهرة، يقبله الناس بسهولة لا يقبلون بها كلام السياسيين في المؤتمرات الصحفية. ومن هنا كان كلام الباحثين أكثر خطورة.

وتمثل طريقة النظـر إلى الأبطـال "كولـومبس" وضحاياهـم هنود أراواك أي: القبول الهادئ للغزو والقتل باسم التقدم- ملمحًا واحدًا من ملامح أحد مداخل التاريخ, وهو المدخل الذي يحكى فيه الماضي من وجهة نظر الحكومات والمنتصرين والدبلوماسيين والقادة.

ويبدو الأمر وكأن هؤلاء يستحقون -ككولومبس- قبولاً عالميًّا، أو كأن هؤلاء -الآباء المؤسسين، جاكسون، ولنكولن، وروزفلت، وكيندي، وأعضاء الكونجرس البارزين، ومشاهير قضاة المحكمة الدستورية العليا- يمثلون الأمة جميعها، ومن ثم يكون الادعاء بأن هناك بالفعل شيئًا اسمه الولايات المتحدة، وأن المجتمع الأمريكي رغم الصراعات والاختلافات العرضية، يتكون بشكل أساسي من مجموعة من البشر تجمعهم مصالح مشتركة، وكأن هناك بالفعل مصلحة قومية، تتمثل في الدستور والتوسع الإقليمي والقوانين التي يصدرها الكونجرس وقرارات المحاكم وتنمية النظام الرأسمالي وثقافة التعليم ووسائل الإعلام.

في أول كتاب صدر له بعنوان: "عالم مستعاد" كتب هنري كيسنجر يقول: "التاريخ هو ذاكرة الدول"، وفيه استعرض المؤلف تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، من وجهة نظر قادة النمسا وإنجلترا، متجاهلاً الملايين التي عانت من سياسات هؤلاء القادة. وتتمثل وجهة نظر كيسنجر في أن "السلام" الذي كان يسود أوروبا قبل الثورة الفرنسية قد تمت استعادته عن طريق الجهود الدبلوماسية لعدد من القادة القوميين. لقد كان هذا العالم الذي يتحدث عنه كيسنجر، بالنسبة إلى عمال المصانع في إنجلترا والفلاحين في فرنسا والملونين في آسيا وإفريقيا والنساء والأطفال في كل مكان -باستثناء الطبقات الغنية- عالمًا من الغزو والجوع والاستغلال. لم يكن ذلك عالمًا مستعادًا، بل عالمًا مفسخًا.

وتختلف وجهة نظري بخصوص كتابة تاريخ الولايات المتحدة اختلافًا جذريًّا عن هذا الكلام، وتتلخص وجهة نظري هذه في أنه لا ينبغي النظر للتاريخ حسب التعريف الذي ذكره هنري كيسنجر. فليست الأمم -ولم تكن في يوم من الأيام- مجرد جماعة من الجماعات. إن كتابة تاريخ أية دولة على أنه تاريخ أسرة ما مثلاً، إنما يخفي التصارع الحاد للمصالح بين المنتصرين والمهزومين، بين السادة والعبيد، بين أصحاب رءوس الأموال والعمال، بين المستبدين والمظلومين سواء في العرق أو الجنس.

وفي عالم متصارع كهذا العالم -عالم الجلادين والضحايا- يكون دور المفكرين حيث يتوجب عليهم، ألا يقفوا إلى جوار الجلادين، وبالتالي فإنني أفضل، في ظل حتمية اختيار الوقوف إلى جوار الجانبين وهو الاختيار الذي يأتي من انتقاء بعض حوادث التاريخ وتأكيدها، أن أحكي قصة اكتشاف أمريكا كما رآها هنود أراواك، وأن أحكي عن الدستور من وجهة نظر العبيد، وعن آندرو جاكسون من خلال عيون هنود الشيروكي، وعن الحرب الأهلية كما رآها الأيرلنديون الذين كانوا يقطنون نيويورك، وعن الحرب المكسيكية كما رآها جنود جيش سكوت الهاربون، وعن ازدهار التصنيع كما رأته الشابات العاملات في مصانع لويل للنسيج، وعن الحرب الإسبانية - الأمريكية كما رآها الكوبيون، وعن غزو الفلبين من خلال عيون الجنود السود على جزيرة لوزون. وأفضّل الكتابة عن الحرب العالمية الأولى كما رآها الاشتراكيون، والحرب العالمية الثانية كما عاشها دعاة رفض حمل السلاح، وأفضّل الكتابة عن الصفقة الجديدة من خلال عيون السود في هارلم، وعن الإمبراطورية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية كما يراها الكادحون من شعوب أمريكا اللاتينية وهكذا ..... وذلك إلى الدرجة التي يستطيع بها أي شخص أن يرى التاريخ من وجهة نظر الآخرين.

ولست أقصد بوجهة نظري تلك التأسي على الضحايا وإدانة الجلادين، فمن شأن الدموع والغضب لأحداث الماضي أن تستنزف طاقتنا الأخلاقية تجاه الحاضر. والحقيقة أن الخطوط ليست واضحة دائمًا، إذ إن المضطهِد ضحية -أيضًا. وعلى المدى القصير (وهو المدى الذي لم يعرف التاريخ البشري غيره حتى الآن) يتحول الضحايا، نتيجة يأسهم وتلوثهم بالثقافة التي تقهرهم، إلى ممارسين للقهر ضد ضحايا آخرين. وانطلاقًا من فهم المواقف المعقدة، فلن يسلم هذا الكتاب من كلام الحكومات الأمريكية المتعاقبة، ومحاولاتها -من خلال السياسة والثقافة- الإيقاع بالناس العاديين في شراك الأممية تحت زعم ما يسمى بالمصلحة المشتركة. كما إنني في كتابي هذا، لن أتغافل عن القسوة أو الوحشية التي يمارسها الضحايا بعضهم ضد بعض نتيجة وقوعهم جميعًا تحت قبضة النظام.

ورغم أنني لا أود أن أنظر إلى الضحايا نظرة مثالية رومانتيكية، فإنني أذكر جيدًا معنى عبارة قرأتها، تقول: "**ليست صرخة الفقراء عادلة دائمًا، لكنك إذا لم تنصت إليها، فلن تدرك أبدًا ماذا يعني العدل**".

لا أريد أن أدعي انتصارات للحركات التي قام بها الناس، لكننا إذا اعتقدنا أن كتابة التاريخ تهدف ببساطة إلى عرض أو تلخيص الإخفاقات التي تهيمن على الماضي، فإننا بذلك نجعل من المؤرخين مشاركين في دائرة لا تنتهي من الهزائم. وإذا كان للتاريخ أن يكون خلاّقًا وقادرًا على التنبؤ بمستقبل مستطاع، فإن عليه -من وجهة نظري- أن يؤكد على وجود احتمالات جديدة عن طريق الكشف عما تم إخفاؤه من أحداث الماضي، حيث أظهر الناس، حتى ولو في ومضات تاريخية قصيرة، قدرتهم على المقاومة والتلاحم والتضامن من أجل النصر. إنني أفترض، أو ربما آمل فقط، أننا ربما نجد مستقبلنا في لحظات الماضي القصيرة التي سادتها الرحمة والشفقة, أكثر مما نجده في قرونه المتعاقبة من الحرب والقتال. هذا هو مدخلي -دون مواربة- لرؤية وكتابة تاريخ الولايات المتحدة.

إن ما قام به كولومبس ضد هنود أراواك بجزر الباهاما، هو نفس ما فعله كورتيس ضد هنود الأزتيك بالمكسيك، وما فعله بيزارو ضد هنود لانكا في بيرو، وهو أيضًا نفس ما قام به المستوطنون الإنجليز في فرجينيا وماساتشوستس ضد هنود بواتن وبيكوت.

في المستعمرات الإنجليزية بأمريكا الشمالية، اتبع المستعمرون النظام نفسه الذي وضعه كولومبس بجزر الباهاما. فرغم الكرم الشديد الذي أبداه الهنود تجاههم، لم يتورعوا عن إشعال النار في القرية الهندية كلها عندما سرق أحد الهنود كوبًا فضيًّا صغيرًا.

ولما هبط الجنود إحدى القرى قتلوا خمسة عشر فردًا، ثم أشعلوا النار في البيوت، وخربوا حقول الذرة، وخطفوا ملكة القبيلة وأطفالها وقتلوهم جميعًا بوحشية.

عنـــدما زاد انزعاج الهنود من تزايد عدد المستوطنات الإنجليزية، قرروا القضاء على المستوطنات تمامًا. فقاموا بثورة كبيرة قتلوا فيها **٣٤٧** من رجال ونساء وأطفال المستعمرات. وكان ذلك إيذانًا ببدء حرب شاملة بين الهنود والمستوطنين.

ونتيجة لعــجز الإنجليز عــن استعبــاد الهنود أو العيــش معهم، فقد قرروا أن يبيدوهم.

وعنـدما وصل الحجاج البيوريتانيـون إلى نيو إنجلاند، لم ينزلوا بأرض خالية من البشر، بل كانت عامرة بقبائل الهنود، غير أن حاكم المستعمرة رجل الدين "جون ونثروب" قدم تبريرًا غريبًا من أجل استيطان الأرض، حيث قال بأن المنطقة تعد خاوية من الناحية القانونية، وقال: إن الهنود لم يقوموا بعملية إخضاع للأرض، ولذلك كان لهم فيها حق طبيعي، لكنه ليس حقًّا مدنيًّا، وليس للحق الطبيعي سند قانوني. لكن الهنود كانوا يريدون استرداد أرضهم وإزاحة المستوطنين من طريقهم، وكانوا يتمنون فرض حكم صارم على المستوطنين بهذه المناطق. وكان مقتل تاجر أبيض عرف عنه خطف الهنود وإثارة الشعب ضدهم مبررًا لشن الحرب على هنود بيكوت **1636**م.

وقعت الحرب بين الطرفين، واستخدم فيها الإنجليز أسلوبًا كان قد استخدمه كورتيس سابقًا، ثم استخدم بعد ذلك في القرن العشرين وبطريقة أكثر تنظيمًا. يتمثل هذا التكتيك في شن هجمات ضد العزّل وغير المحاربين من أجل إرهاب العدو.

يقول جينينجس من هنود بيكوت: إن صفوة البيوريتانيين كانوا دائمًا يريدون الحرب، بينما لم يكن الإنجليزي الأبيض من البشر العاديين يرغب في تلك الحرب، وكان غالبًا ما يرفض الاشتراك فيها. ورغم أن الهنود بطبعهم لم يميلوا إلـى الحـرب،

فقد كانوا يردون اعتداء باعتداء مثله. ولما انتهت الحرب في **١٦٧٦**، جفت موارد الإنجليز رغم أنهم كسبوا الحرب ومات من بينهم ستمائة. وفي الوقت نفسه مات من الهنود ثلاثة آلاف بمن فيهم زعيمهم. ورغم ذلك لم تتوقف غارات الهنود على الإنجليز.

ولفترة قصيرة حـــاول الإنجليز استخـــدام أساليب أقـــل عنفًا، لكـــن ظل هدفهم الرئيسي هو الإبادة لأهل الأرض الأصليين. وقد قل عدد الهنود الذين كانوا يسكنون شمال المكسيك عند وصول كولومبس من عشرة ملايين إلى أقل من مليون. وماتت أعداد غفيرة منهم بسبب الأمراض التي أتى بها المستعمرون البيض.

كان وراء غزو الإنجليز لأمريكا الشمالية، ومذابحهم ضد الهنود الحمر، وخداعهم ووحشيتهم، ذلك الدافع القوي الذي تغذيه الحضارات القائمة على الملكية الخاصة. بيد أن هذا الدافع كان غامضًا من الناحية الأخلاقية، فالحاجة إلى الاتساع والأرض كانت تمثل احتياجًا بشريًّا حقيقيًّا. ولكن تحولت هذه الحاجة، في ظروف الندرة في حقبة زمنية بربرية من التاريخ، إلى عملية قتل لشعوب بأكملها.

والآن، هل كان كل هذا الدم المسفوك وهذا الخداع -من كولومبس إلى كورتيس وبيزارو والبيوريتانيين- ضرورة بالنسبة للجنس البشري كي ينتقل من طور الهمجية إلى الحضارة؟ هل كان موريسن على حق حين دفن قصة الإبادة وسط ركام قصة أكثر أهمية، هي قصة التقدم البشري؟ ربما قدم أحدهم حجة مقنعة كما فعل ستالين عندما قتل الفلاحين من أجل التقدم الصناعي في الاتحاد السوفيتي، وكما فعل تشرشل وهو يشرح سبب إلقاء القنابل على دريسدن وهامبورج، أو كما فعل ترومان وهو يبرر ما حدث في هيروشيما، ولكن كيف لحجة أو حكم أن يقوم إذا كان من الصعب الموازنة بين المكاسب والخسائر، وذلك لأن الخسائر يتم السكوت عنها أو يتم ذكرها بطريقة عابرة؟

وربما كـان هذا الحكـم المتعسف مقبولاً من الطبقـات العليا والوسطى للدول الغازية والمتقدمة. ولكن هل يقبل بهذا الحكم فقراء آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية أو سجناء معسكرات العمل الإجباري السوفيتية، أو السود في أحيائهم الفقيرة، أو الهنود في محمياتهم، أي كل ضحايا هذا التقدم الذي تستفيد منه أقلية قليلة في العالم؟ وحتى تلك الأقلية ذات الامتيازات الواسعة ألا تعيد النظر في قيمة هذه الامتيازات عندما يصبح أفرادها مهددين نتيجة غضب الذين دفعوا ثمن هذه الامتيازات في شكل تمرد منظم أو في شكل مظاهرات أو في شكل ارتكاب أحداث فردية وحشية نتيجة اليأس، وهي الأحداث التي يطلق عليها القانون والدولة لقب "جرائم"؟

وإذا افترضنا أن هناك بالفعل تضحيات ضرورية من أجل التقدم البشري، ألا يجدر بنا أن نتمسك بمبدأ مفاده أن الذين سيتم التضحية بهم يجب أن يكونوا هم من يتخذون القرار؟ بيدنا جميعًا أن نقرر التنازل عن شيء يخصنا، ولكن هل نملك الحق في أن نلقي بأطفال الآخرين أو حتى أطفالنا في المحرقة، في سبيل تقدم لا يكاد يكون واضحًا أو حاضرًا كالمرض والصحة والحياة والموت؟

ما الذي جناه الناس في إسبانيا من القتل والوحشية اللذين مورسا ضد هنود الأمريكتين؟ لقد كان ثمة مجد لإمبراطورية إسبانية في نصف الكرة الغربي لفترة قصيرة من الزمن.

لم يكن من شأن ما سرق مـن الذهب والفضة وما تم جلبه منهما إلى إسبانيا أن يزيد الشعب الإسباني غنى، لقد منح الذهب والفضة ملوك إسبانيا دفعة في ميزان القوة في العالم لبعض الوقت؛ إذ منحهم فرصة استئجار عدد أكثر من الجنود المرتزقة للاشتراك في حروب الإمبراطورية الإسبانية، وانتهى الملوك بخسارة هذه الحرب. وكل ما بقي كان يتمثل في تضخم اقتصادي قاتل، وشعب جائع، وقلة غنية زادت غنى، وكثرة فقيرة زادت فقرًا.

لا بد من التســاؤل: إلى أي حد يصل يقيننــا بأن ما تم تدميــره والقضاء عليــه كان هو الأدنى مرتبة؟ لقد سماهم كولومبس بالهنود، وذلك لأنه أخطأ في تقدير حجم الكرة الأرضية. وفي هذا الكتاب فإننا ندعوهم بالهنود أيضًا، وإن كان ذلك على مضض؛ لأنه يحدث كثيرًا أن ترتبط شعوب بأسماء يخلعها عليهم من يقومون بغزوهم. بيد أن هناك سببًا في إطلاق لقب الهنود عليهم؛ لأنهم جاءوا بالفعل من آسيا ووصلوا إلى ألاسكا في هجرة طويلة استمرت آلاف السنين انتهت بهم في الأمريكتين.

لقد قامت بين الهنود قبل مجيء كولومبس مئات الثقافات القبلية، وما يقرب من مائتي لغة مختلفة. لقد أجادوا فن الزراعة واستطاعوا زراعة الذرة، وهو المحصول الذي لا ينمو وحده، بل لابد من زراعته وتخصيبه وحصاده وتخزينه، وقام الهنود بزراعة العديد من الخضروات والفواكه، وكذلك الفول السوداني والتبغ.

واستقر بعضهم في مجتمعات كبيرة ثابتة، وعرفت تلك التجمعات الأعمال الفنية والاجتماعية وتشييد البيوت. واستخدموا السدود وقنوات الري، وشيدوا الأعمال النحتية الضخمة، والحصون الكبيرة.

وفي قرى هنود الإيركوا كانت الأرض مشاعًا بين الجميع، وكان الصيد يتم جماعة ثم يقسم بين كل أعضاء القرية.

وحظيت المرأة بينهم بمكانة مهمة؛ إذ كانت أنساب الأسر تتم عبر الأم. وكانت كبار نساء القرية يقمن باختيار الرجال الذين يمثلون العشائر في القرية أو في اجتماعات القبائل. ولم يعرف مجتمع الإيركوا الفكرة الأوروبية الخاصة بهيمنة الرجل وتبعية المرأة في كافة الأمور.

وفي نفس الوقت الذي كان يتم فيه تعليم أطفال الإيروكوا التراث الثقافي لشعبهم والتضامن مع قبائلهم، كان يتم تعليمهم كيف يكونون مستقلين غير مستسلمين لأي سلطة مستبدة، وكذلك كانت المساواة ومشاركة الأشياء من أهم ما يتعلمه أطفال الإيروكوا. ولم يكن الآباء يلجؤون إلى توقيع عقوبات غليظة على الأطفال ولا على تدريبهم على قضاء الحاجة، بل كانوا يتركون الأطفال يتعلمون وحدهم وبالتدرج كيف يهتمون بأنفسهم.

كانت كل هذه القيم تقف بمثابة الضد للقيم الأوروبية التي جلبها المستعمرون الأوائل، الذين جاءوا من مجتمع ينقسم إلى أغنياء وفقراء، ويسيطر عليه حكام وقساوسة ورجال العائلات دون نسائها.

خلاصة القــول: إن كولومبس وأتباعه لــم ينزلوا أرضًا خالية، لكنهم نزلوا عالمًا تساوي الكثافة السكانية في بعض مناطقه مثيلتها في أوروبا، وهبطوا عالمًا ذا ثقافة مركبة، حيث العلاقات الإنسانية أكثر مساواة من أوروبا، وحيث تعمل العلاقات بين الرجال والنساء والأطفال والطبيعة في روعة وجمال ربما لم تعرفه أية منطقة أخرى في العالم.

ولقـد كتب جون كولير -الباحـث الأمريكي الـذي عاش بين الهنود إبان عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين في الجنوب الغربي لأمريكا- واصفًا روح الهنود قائلاً: "لو أننا استطعنا أن نملك روحًا كروحهم لصارت الأرض معين خير لا ينضب، ولسادها سلام أبدي".

ربما غلب على هذا الكلام تفكير أسطوري رومانسي، لكن الدليل الذي قدمه الرحالة الأوروبيون على مدار القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر يؤيد ويدعم كثيرًا من أركان هذه الأسطورة على نحو لا يقبل الشك. وحتى لو تجاوزنا عن الشوائب التي تعلق بالأساطير وعن جوانب النقض فيها، فلا بد أن نرتاب في مسألة إبادة الأجناس بزعم التقدم البشري، كما لا بد أن نرتاب في كتابة التاريخ وسرده من وجهة نظر قادة وغزاة الحضارة الغربية، سواء تعلق ذلك بالماضي أو بالحاضر.

الفصل الثاني

إرساء حاجز اللون

لم تلعب العنصرية دورًا خطيرًا فـي تاريخ العالم ولزمن طويل كما فعلت في الولايات المتحدة. ومشكلة حاجز اللون لا تزال قائمة، ولذلك فالأمر أكبر من مجرد سؤال تاريخي: **كيف تبدأ العنصرية؟ وبشكل أكثر إلحاحًا: كيف تُراها تنتهي؟ ويمكن طرح التساؤل بطريقة أخرى: هل من الممكن أن يتعايش البيض والسود دون كراهية؟**

لو استطاع التاريخ أن يساهم في إجابة هذه الأسئلة، فمن المحتمل أن تمدنا بدايات العبودية في أمريكا الشمالية ببعض مفاتيح الإجابة.

يرى بعض المؤرخين أن السود الأوائل فـي فيرجينيا كانوا بمثابة خدم، مثلهم مثل الخدم البيض الذين جلبوا من أوروبا. وحتى لو تم تصنيفهم خدمًا فإن معاملتهم أو النظرة إليهم لم تتساو مع معاملة الخدم البيض. لقد كانوا في حقيقة الأمر عبيدًا. تطور الرق سريعًا ومع تطوره نما -أيضًا- هذا الإحساس العنصري.

كان كل جانب من جوانب حياة أوائل المستوطنين البيض يشكل ضغطًا من أجل استعباد السود، فقد كان الفرجينيون عام **١٦١٩** في مسيس الحاجة إلى أيد عاملة، لزراعة ما يبقيهم على قيد الحياة، بعد أن هلك الكثير منهم في الشتاء الماضي لقلة الطعام، حتى إنهم اضطروا إلى أكل الجثث.

كان مستوطنو فرجينيا في احتياج شديد للأيدي العاملة لزراعة الذرة طعامًا من أجل البقاء، والتبغ من أجل التصدير. عندما اكتشفوا أن التبغ -مثله مثل كل المنتجات الجالبة للمتعة والتي لا تقرها الأعراف الأخلاقية- يدر أموالاً كثيرة، لم يثيروا أسئلة من شأنها أن تعطل تجارة رابحة كهذه، بالرغم من تشدقهم الزائف بالعبارات الدينية.

لم يستطع مستوطنو فرجينيا إجبار الهنود على العمل لديهم، فقد أدركوا أنهم لو ارتكبوا مذبحة ضد الهنود فسوف يرد الهنود بمثلها.

ولم تكن أعداد الخدم البيض متوفرة في ذلك الوقت، كما أنهم لم يأتوا عن طريق الرق، ولم يكن عليهم سوى الالتزام بشروط عقود عملهم، كوسيلة من أجل المرور إلى العالم الجديد. ولم يكن لدى المستوطنين ميلاً لزراعة الأرض وفلاحتها. ولما كانت الحال كذلك كان الحل في جلب العبيد السود.

كان من شأن قلة حيلة السود أن تساعد على تيسير استعبادهم، نتيجة لوضعهم الغريب في العالم الجديد، فقد كان الهنود يعيشون على أرضهم، والبيض يتمتعون بثقافتهم الأوروبية. أما هؤلاء السود، فقد انتزعوا من أرضهم وثقافتهم انتزاعًا، وأُجبروا على وضع انطمست به لغتهم وعاداتهم وعلاقاتهم الأسرية. لقد انطمست ثقافتهم باستثناء ما استطاع بعضهم أن يتمسك به بمثابرة غير عادية. هل كانت ثقافتهم هي الأدنى مرتبة، وبذلك صارت عرضة للدمار؟ قد يكون ذلك صحيحًا من ناحية المقدرة العسكرية، خاصة في مواجهة البيض بأسلحتهم وسفنهم. لكنها لم تكن بأية صورة أخرى ثقافة أدنى إلا في نظر من يرى أن الثقافات التي تختلف عن ثقافته، ثقافات أدنى. وحتى من الناحية العسكرية فلم يكن بوسع الغربيين أن يقهروا ذلك الأدنى،وكان لا بد لهم أن يدبروا ذلك عن طريق اتفاقهم مع زعماء القبائل.

كانت الحضارات الإفريقية متقدمة بطريقتها الخاصة، مثلها مثل حضارة أوروبا،بل إنها كانت في بعض وجوهها، أكثر روعة ومدعاة للإعجاب. لكنها في الوقت نفسه لم تخل من عيوب كالقسوة والامتيازات الخاصة لأصحاب السلطة والاستعداد للتضحية بالبشر لأسباب دينية أو طلبًا للمال. لقد كانت حضارة أكثر من مائة مليون نسمة،برعت في الصناعات الحديدية، والزراعة، والغزل والنسيج، والبلاط وفنون النحت.

وكانت ممالك تبموكتو ومالي محط أنظار الرحالة الأوروبيين وإعجابهم، حيث شيدت دول واستقرت نظم.

مثلما هو الحال في أوروبا، كان في إفريقيا نوع من الإقطاع الذي قام -أيضًا- على الزراعة، الأمر الذي خلق من المجتمعات سادة يملكون وتابعين يخدمون. لكن الإقطاع الإفريقي كان يختلف عن نظيره الأوروبي في أنه لم يكن كمجتمعات العبيد في اليونان وروما، وهي المجتمعات التي وضعت نهاية للحياة القبلية. أما في إفريقيا فرغم وجود الإقطاع كانت الحياة القبلية ما زالت قوية، وتجلى ذلك في بعض ملامحها الإيجابية، كروح التعاون بين أبناء المجتمع وإظهار الشفقة في تطبيق العقوبات. ولأن الإقطاعيين الأفارقة لم يكن لديهم السلاح كنظرائهم الأوروبيين، فلم يحوزوا طاعة تابعيهم بسهولة.

لم تخل البلدان الإفريقية من الرق، وهو الأمر الذي استخدمه الأوروبيون كذريعة لتبرير تجارتهم في العبيد. لكن كان عبيد إفريقيا يشبهون في وضعهم عبيد الأرض في أوروبا، أي أنهم كانوا مثل معظم سكان أوروبا. وكان العبيد في إفريقيا يتمتعون بحقوق كثيرة، كالتملك والتزوج بل ومصاهرة أسيادهم.

ولا يعني ذلك أننا نمتدح الرق في إفريقيا، لكنه كان يختلف كل الاختلاف عن الرق في مزارع ومناجم الأمريكتين. كما أن الرق الإفريقي خلا من عنصرين جعلا الرق الأمريكي أشد أشكال الرق قسوة في التاريخ. أولهما هو ذلك السعار من أجل تحقيق أرباح لا حد لها، يدعمها نظام الزراعة الرأسمالي. ويتمثل العنصر الثاني في أنه عن طريق استخدام الكراهية العنصرية، صار العبد في مكانة دون مكانة البشر، وبوضوح لا لبس فيه، بات اللون فاصلاً؛ إذ صار معه الأبيض سيدًا، والأسود عبدًا.

كان يتم أسر العبيد ونقلهم إلى المستعمرات بوحشية شديدة وقسوة. وكانت مسيرات من أُسروا إلى الساحل الإفريقي مسيرات موت، وكانت تزيد في معظم الأحيان عن ألف ميل يمشيها العبيد وهم مقيدون من الرقاب، وتحت إرهاب السوط والسلاح، وكان يموت اثنان من بين كل خمسة.

وبوصول الأسرى إلى الساحل الإفريقي يتم تعبئتهم في سفن الشحن في مساحات لا تزيد كثيرًا عن حجم الكفن، حيث يكبلون بالسلاسل معًا، حتى إنهم كانت تنتابهم نوبات تشبه نوبات الجنون.

بحلول عام ١٨٠٠ كان قد تم نقل ما يتراوح بين ١٠ و ١٥ مليون أسود من إفريقيا إلى الأمريكتين، ويمثل هذا العدد ثلث من تم أسرهم في إفريقيا تقريبًا. ومعنى ذلك أن إفريقيا فقدت حوالي ٥٠ مليونًا من البشر، بين من ماتوا في سفن الشحن، وبين من وصلوا إلى الأمريكتين. وقد تم ذلك على أيدي تجار العبيد ومالكي المزارع في غرب أوروبا وأمريكا. وهي البلاد التي تعتبر الأكثر تقدمًا في العالم اليوم.

في عام ١٦١٠ أرسل قس كاثوليكي يعمل في الأمريكتين إلى أحد موظفي الكنيسة في أوروبا يسأله إن كان أسر واستعباد السود الأفارقة شرعيًّا.

وجاءه الرد بألا يكون لديه أدنى شك في ذلك؛ لأن الأمر قد نوقش في مجلس الضمير في لشبونة، وكل الأساقفة في ساو توم أو كيب فيرد، لا يرون خطأ في ذلك، وإن الآباء يقتنون العبيد لخدمتهم دون تردد.

كان يتم معاملة السود معاملة مغايرة للخدم البيض، وكان يتم توقيع عقوبات خفيفة على الخدم البيض مقابل عقوبات بالقتل والحرق وتقطيع الأوصال على السود.

هل كانت هذه المعاملة الظالمة، وهو ما نسميه عنصرية، نتيجة كراهية طبيعية من البيض للسود؟ يكتسب مثل هذا السؤال أهمية كبرى، ليس فقط كأمر يتصل بالدقة التاريخية، ولكن لأن أي تأكيد على العنصرية بصفتها شيئًا طبيعيًّا إنما يخفف من مسؤولية النظام الاجتماعي الذي رعاها ودافع عن وجودها. وإذا كان من الصعب إظهار العنصرية على أنها شيء طبيعي، فلا بد أنها ناتجة عن ظروف محددة، يتوجب علينا أن نقضي عليها.

وليس ثمة طريقة لاختبار سلوك البيض والسود تجاه بعضهم البعض في ظروف طيبة، أي: ظروف خالية من التبعية، وخالية من الدافع المالي للاستغلال والاستعباد، وخالية كذلك من الحاجة الماسة للبقاء، وهو ما دفع البيض إلى استغلال واستعباد السود. لقد كانت الظروف -بالنسبة للبيض والسود- في أمريكا في القرن السابع عشر، عكس ذلك تمامًا؛ إذ كانت تتجه بقوة شديدة نحو البغض وسوء المعاملة. وفي ظل ظروف كهذه فإن إظهار أدنى قدر من المشاعر الإنسانية بين الجنسين يعد دليلاً على وجود دافع إنساني أساسي نحو هذا المجتمع وهذا لم يحدث.

ومن الملاحظ أنـه حتى قبل القرن السادس عشـــر، أي: قبل أن تبدأ تجارة الرقيق وقبل أن تُلصق كلمة رقيق بالأفارقة، فعلاً أو مجازًا، لم تكن كلمة أسود تعني سوى كل ما هو كريه من الصفات، وكانت تعني ملطخ بالقذارة، ملوث، حقود، مميت، ظالم، إلخ.. كما ورد في قاموس أكسفورد. أما اللون الأبيض فكان مرادفًا وملازمًا للجمال.

على أنه بالرغم من مثل هذه المفاهيم المسبقة عن اللون الأسود، فإن هناك دليلاً على أن البيض والسود كانوا يتصرفون فيما بينهم على قدم المساواة متى وجدوا أنفسهم ضحية مشاكل مشتركة أو عمل مشترك أو عدو مشترك يتمثل غالبًا في صاحب العمل. ويؤكد ذلك أحد الباحثين أن الخدم من الزنوج والبيض في القرن السابع عشر لم تكن تشغلهم الاختلافات الفيزيقية فيما بينهم.

لقد عمل الإنسان الأسود إلى جوار الأبيض وتآخيا معًا. ولعل استصدار القوانين التي تمنع مثل هذه العلاقات بينهما تشير إلى مدى قوة هذه العلاقات الإنسانية. ففي عام 1961 أصدرت فريجينيا قانونًا يقضي بطرد أي شخص أبيض حر رجلاً كان أو امرأة، إذا تزوج من بين الزنوج أو الهنود عبيدًا كانوا أم أحرارًا.

قاوم السود هذا الاستعباد منذ بدايته. غير أنه بمرور الزمن تمت السيطرة شبه الكاملة على هذه المقاومة، حتى تم استعباد **٣** ملايين من السود في الجنوب.

بيد أنه تحت أكثر الظروف صعوبة، ورغم كل الألم المصاحب للتعذيب والموت، لم يتخل هؤلاء الأفروأمريكيين خلال قرنين من الاستعباد في أمريكا الشمالية عن استمرارهم في التمرد. على أن تمردهم هذا لم يكن منظمًا إلا في مرات قليلة. ولطالما أظهروا رفضهم الإذعان للرجل الأبيض عن طريق الفرار، ولطالما اشتركوا في أشكال عديدة من المقاومة، كالعمل على تخريب الإنتاج، أو التباطؤ في العمل، وهو الأمر الذي أكد حرصهم على كرامتهم كبشر. وقد بدأت مقاومة السود لاستعبادهم في إفريقيا، أي قبل ترحيلهم إلى العالم الجديد. فكانوا يقفزون من السفن إلى البحر، وظلوا فترة طويلة تحت الماء حتى ماتوا غرقًا.

لم تكن قسوة نظام الرق مقتصرة على الجانب البدني للعبيد؛ إذ كانت قسوته في الجانب النفسي شديدة جدًّا. وكان عليهم تعلم الانضباط وقواعد السلوك، وكانت تتعمق لديهم فكرة أنهم الجنس الأدنى، وأنهم لا بد أن يخضعوا لقوة سيدهم. ولكي يتحقق ذلك الانضباط كان التركيز منصبًّا على العمل الشاق وتقطيع الأواصر الأسرية للعبيد، والتأثيرات المهدهدة للدين، والتفريق بينهم بحيث يخدم بعضهم في المزارع بينما يخدم الآخرون في أماكن أفضل كبيوت سادتهم.

بيد أن ذلك كلــه لم يضع حدًّا لحركات التمرد. صحيح أنها لم تكن كثيرة، لكنها كانت كافية لبث الذعر في قلوب أصحاب المزارع.

عــلى أن مقاومــة العبيد لنظــام الــرق لم تخــل مــن اشتراك بعــض البيض، ففي عام **١٦٦٣** شكل الخدم البيض المتعاقدون لخدمة أصحاب المزارع، بالاشتراك مع عبيد مقاطعة جلاوسيستر بفرجينيا خطة للتمرد طلبًا لحياتهم، إلا أن خطتهم باءت بالفشل بسبب الخيانة وانتهت بإعدام كثيرين منهم.

في عــام **١٧٤١** ومع شتاء قاس، زادت خلالــه معاناة الجميــع، واندلعت خلاله حرائق كثيرة اتهم فيها الكثير من الخدم البيض والعبيد، وبدأ يسود نوع من الخوف هو الخوف من أن ينضم الساخطون البيض إلى العبيد من أجل الإطاحة بالنظام القائم.

ومن ثم اتخذت الإجراءات اللازمــة للحفاظ على الفرصـة القائمة للتعاون بين مالكي العبيد والخدم البيض. وفي الوقت نفسه أصدر المجلس النيابي لفرجينيا عدة قوانين جديدة من شأنها أن تفرض قواعد صارمة للنظام والعقوبات:

إيماناً منها بأن البيــض أرقى مرتبــة من الســود، قررت الطبقــة الحاكمة بفرجينيـــا أن تقدم عدة مكاسب إلى نظرائها البيض (الأدنى في المرتبة الاجتماعية)، من خلال زيادة حصصهم في المحاصيل، وحصول الخدم المحررين على خمسين آكر من الأرض.

وبمجرد أن شعر المزارع الصغير بأنه لم يعد يُستغل استغلالاً كبيرًا عن طريق الضرائب، وأن أموره الاقتصادية في ازدهار، قل شغبه وخطره وزاد احترامه، وبدأ ينظر إلى جاره الأقوى والأكبر على أنه حام لمصالحهما المشتركة. حالت تلك العطايا الطبقية دون الوحدة الضرورية بين البيض والسود التي كان من شأنها أن تشعل نار التمرد المشترك وتعمل على صناعة ظروف تاريخية أفضل.

كانت خشية الطبقة الحاكمة من الخدم البيض تكمن في أن الخدم تم جليهم من أيرلندا ودول أوروبية أخرى، وقد خدموا كجنود في أوطانهم الأم. لذلك كانت الخشية من تجمع هؤلاء وقيامهم بثورة في حال لو سنحت لهم الظروف الحصول على أسلحة أو التجمع بأعداد كبيرة.

كان هذا وعيًا طبقيًّا، بل كان خوفًا طبقيًّا, يشهد بذلك ويؤكده ما كان يحدث في فرجينيا ومستعمرات أخرى.

الفصل الثالث

تمرد الرعاع والدهماء

في عام **١٦٧٦** وبعد سبعين عامًا من تأسيسها وقبل مائة عام من قيامها بقيادة الثورة الأمريكية, واجهت مستعمرة فرجينيا تمردًا تزعمه الرواد الأوائل من البيض، وشاركهم فيه العديد من العبيد والخدم. كان تمردًا كبيرًا اضطر معه حاكم المستعمرة إلى الفرار من جيمس تاون المحترقة، كما اضطرت إنجلترا إلى إرسال ألف جندي عبر الأطلنطي، على أمل النجاح في حفظ النظام وسط أربعين ألفًا من المستعمرين. كان ذلك هو تمرد بيكون.

بدأ تمرد بيكون بنزاع يتعلق بكيفية التعامل مع الهنود الحمر القريبين من الحدود الغربية، والذين كانوا يشكلون تهديدًا دائمًا. كان كثير من البيض الذين لم يحصلوا على أراض في جيمس تاون، قد اتجهوا غربًا بحثًا عن الأرض، وهناك واجهوا الهنود الحمر.

كان العنف قد تصاعد على الجبهة قبل التمرد، وحدثت غارات متبادلة بين الهنود والبيض. وأعلن مجلس نواب جيمس تاون الحرب على الهنود باستثناء المتعاونين منهم. وأثار هذا الاستثناء غضب الرواد البيض، الذين أرادوا شن حرب شاملة، لكنهم في الوقت نفسه أبدوا استياءهم من الضرائب المبالغ فيها، والتي فُرضت عليهم من أجل الحرب.

شهد العام **١٦٧٦** أوقاتًا عصيبة، وكان ستة من بين كل سبعة أفراد يعانون على الأقل من الفقر والدين وعدم الرضا، فضلاً عن أن كثيرًا منهم مسلحون.

وتوحي عبارة: "ستة من بين سبعة" بوجود طبقة عليا لم يضربها الفقر. والحقيقة أن هذه الطبقة كانت قد تشكلت بالفعل في فرجينيا، بل وخرج بيكون نفسه من صفوف هذه الطبقة، وربما كان حماسه لقتل الهنود أكبر من حماسه لمداواة آلام الفقراء. لكنه أصبح رمزًا للسخط العام ضد المؤسسة في فرجينيا. وانتُخب عضوًا بمجلس النواب في ربيع **١٦٧٦**.

وعندما أصر على تشكيل كتائب مسلحة لمحاربة الهنود خارج النطاق الرسمي، أعلن بيركلي حاكم المستعمرة بأن بيكون متمرد، وأمر بإلقاء القبض عليه. لكن خروج مؤيدي بيكون جعلت الحاكم يضطر للإفراج عنه، ليخرج بيكون ليواصل هجماته ضد الهنود.

أصــدر بيكون في يوليو **١٦٧٦** إعلان الشعــب، والذي يحــوي خليــطًا من السخط الشعبي ضد الأغنياء وكراهية الرواد للهنود. فقد أدان هذا الإعلان إدارة بيركلي لفرضها ضرائب ظالمة، وممارستها للمحسوبية في الوظائف العليا واحتكارها تجارة الفراء وتقاعسها عن حماية المزارعين من الهنود.

في خريف ذلك العام مات بيكون وهو في التاسعة والعشرين من عمره بسبب أسراب الحشرات التي توالدت في جسده حسب ما قال أحد معاصريه.

لم يستمر التمرد بعد ذلك طويلاً؛ إذ أصبحت سفينة مسلحة بثلاثين مدفعًا، وتتجول في نهر يورك، قاعدة لحفظ النظام. ولجأ قائدها توماس جرانثام إلى القوة والخداع من أجل نزع سلاح المتمردين، وعندما وصل جرانثام إلى الحصن الرئيسي للتمرد، وجد به أربعمائة من المسلحين الإنجليز والزنوج، وكانوا خليطًا من الرجال الأحرار والخدم والعبيد، فوعد بالعفو عنهم جميعًا ووعد الخدم والعبيد بإعطائهم حريتهم، فسلموا أسلحتهم وانصرفوا باستثناء ثمانين من الزنوج وعشرين من الإنجليز أصروا على الاحتفاظ بأسلحتهم، خدعهم جرانثام حتى اصطحبهم معه على متن سفنه ثم نزع منهم أسلحتهم وسلمهم إلى سادتهم. وواصل جرانثام اقتحام الحصون وأعدم ثلاثة وعشرين من قادة المتمردين شنقًا.

كانت سلسلة القهر في فرجينيا شديدة التعقيد؛ إذ كان البيض الأوائل يستغلون الهنود الحمر، وكانت صفوة جيمس تاون تستغل هؤلاء الأوائل عن طريق فرض ضرائب باهظة عليهم، وكانت إنجلترا تستغل المستعمرة كلها؛ إذ كانت تشتري التبغ من المستعمرين بأسعار تمليها هي، ومكنت التجار الإنجليز من احتكار التجارة الاستعمارية.

نـال التمرد فــي بدايتــه تأييدًا كبيــرًا، وأرجع البعــض ذلك التأييـــد بسبب آمال المساواة.

وكان معنى: "المساواة" هو إعادة توزيع الثروة بالتساوي، وكان ذلك الأمل سببًا رئيسيًّا لأفعال لا حصر لها قام بها فقراء البيض ضد الأغنياء في كل المستعمرات الإنجليزية على مدار قرن ونصف قبل الثورة.

وكان الخــدم الذين التحقوا بتمرد بيكــون يمثلون جزءًا كبيــرًا من الطبقـــات المطحونة التي جاءت إلى أمريكا الشمالية من مدن أوروبية ضاقت حكوماتها بأمثالهم، وكانت تتوق للخلاص منهم. ففي إنجلترا أدى تطور التجارة والرأسمالية إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر ووقف الأراضي على تربية الأغنام من أجل إنتاج الصوف، مما أدى إلى امتلاء المدن الإنجليزية بالفقراء، وبداية من عصر الملكة إليزابيث، سُنّت قوانين لمعاقبتهم أو سجنهم في ورش العمل أو حتى نفيهم خارج البلاد. وعلى مدار القرنين السابع عشر والثامن عشر ونتيجة للنفي الإجباري والوعود والإغراءات والأكاذيب والاختطاف والحاجة الماسة للهروب من ظروف المعيشة على أرض الوطن، أصبح الفقراء الراغبون في السفر إلى أمريكا سلعة تجلب الأرباح للتجار وملاحي السفن، وبالتالي أصبحوا نفس الشيء لسادتهم في أمريكا.

وبعد التوقيع على وثيقة، يوافق المهاجرون بمقتضاها على تحمل نفقات شحنهم عن طريق العمل لدى سيد من السادة مدة خمسة أو سبعة أعوام، غالبًا ما كان يتم سجن هؤلاء حتى تقلع السفينة، وذلك للتأكد من أن أحدًا منهم لن يفر. كانت عملية الشحن تتم في ظروف قاسية ومات منهم أعداد كثيرة بسبب الجوع والعطش.

بعد وصول الخدم لأمريكا كانوا يعانون من سوء المعاملة، وكان الضرب والجلد شائعين وكذلك اغتصاب الخادمات.

وكـان السيد يحـاول طول الوقـــت أن يتحكـم في الحيــاة الجنسية للخــدم تحكمًا كاملاً؛ إذ كان من مصلحته الاقتصادية أن يحول دون زواج الخادمات ودون علاقاتهن الجنسية؛ لأن نتيجة ذلك، وهو الحمل، سوف يتعارض مع ما تقوم به الخادمات من عمل.

ولم يكن من حق الخدم الزواج بدون إذن سيدهم، وإلا فُرق بينهم وبين عائلاتهم أو تعرضوا للجلد. بل إن قانون بنسلفانيا في القرن السابع عشر كان ينص على أن الزواج دون موافقة السيد هو زنا وفسوق ويعتبر الأطفال لقطاء.

لم يكن من حق الخدم أن يشتركوا في المحاكم كمحلفين، ولم يكن من حقهم التصويت لعدم امتلاكهم الثروة. وكثيرًا ما قامت المحاكم بتبرئة السادة من تهم قتل واغتصاب للخدم على الرغم من توافر الأدلة. فقط كانت تكتفي بتوجيه اللوم للمتهم وتبرئته من التهم.

وكثيرًا ما نظــم الخدم حركات تمرد، لكن لم يكن ثمــة حركة تمرد من ذلك النوع من المؤمرات الواسعة النطاق.

ونظرًا لصعوبة تحمل الوضع، وثبات عدم جدوى حركات التمرد في مجتمع يزداد مع الأيام تنظيمًا، فقد لجأ الخدم إلى الحلول الفردية، فكان بعض الخدم يقوم بضرب سيده، أو تهديده بالقتل.

وبعد اشتراك الخدم في تمرد بيكون الشهير، وصدرت ضدهم قوانين لعقابهم، لجأ البعض منهم للهرب أو الإضراب عن العمل.

وقد جاء أكثر من نصف المستوطنين الذين وصلوا إلى شواطئ أمريكا الشمالية كخدم، وكان معظمهم من الإنجليز في القرن السابع عشر. بينما كان غالبيتهم من الألمان والأيرلنديين في القرن الثامن عشر. وبمرور الوقت حل العبيد محل الخدم؛ وذلك لأن هؤلاء فروا إلى حريتهم.

ولكــن ماذا حدث لهؤلاء الخــدم بعد أن باتــوا أحـــرارًا؟ هناك من يقـــول: إن أحوال هؤلاء الخدم قد ازدهرت وأصبحوا ملاكًا للأراضي. لكن أبوت سميث بعد دراسة دقيقة يخلص إلى أن المجتمع الاستعماري لم يكن ديمقراطيًّا، كما أنه لم يكن يؤمن بكل تأكيد بالمساواة بين الناس؛ إذ كانت تسيطر عليه حفنة من الرجال الذين بلغت ثرواتهم حدًّا يجبر الآخرين على العمل لديهم.

ويقرر سميــث أن واحدًا من بين كل عشرة كان سليمًا صلبًا يستطيع إذا ساعده الحظ أن يحرز بعض النجاح ويمتلك أرضًا وتزدهر معيشته، وربما أصبح واحد آخر من بين كل عشرة مشرفًا على العمال أو صانعًا ماهرًا. أما الباقون من اليائسين والمحطمين وهؤلاء يمثلون حوالي **٨٠٪** فقد ماتوا أثناء فترة السخرة والاستعباد، أو عادوا إلى إنجلترا بعد انتهاء فترة سخرتهم، أو أصبحوا من فقراء البيض.

ومن الواضح تمامًا أن الخطوط الطبقية قد باتت جدّ واضحة خلال الحقبة الاستعمارية؛ إذ أصبح الفارق بين الأغنياء والفقراء أكثر حدة. وبحلول عام 0071 كان بفرجينيا خمسون أسرة غنية، يملكون ثروة تعادل خمسين ألف جنيه، وهو مبلغ كبير في تلك الأيام.

وفي كارولاينا الشمالية والجنوبية، كانت الدساتير الأساسية من وضع جون لوك في ستينيات القرن السابع عشر، وهو الذي يعتبر الأب الفلسفي للآباء المؤسسين وللنظام الأمريكي. وكان من شأن دستور لوك خلق أرستقراطية إقطاعية؛ إذ كان يقضي بأن يملك ثمانية بارونات **٤٠٪** من أراضي المستعمرة، وبأن لا يشغل منصب الحاكم إلا من كان بارونًا.

وبعـد أن أحكم التاج البريطاني سيطرته على كارولاينا الشمالية في أعقاب تمرد كبير ضد تدابير تملك الأراضي، استولى المضاربون الأغنياء على أكثر من نصف مليون آكر -فدان- لأنفسهم. بينما وضع الفقراء أيديهم على قطع صغيرة من الأراضي ودافعوا عنها بقوة.

لم يختلف الأمر في باقي المستعمرات في بوسطن ونيويورك وغيرها، فقد هيمنت طبقة التجار الأرستقراطيين، واحتكروا الوظائف لأنفسهم.

زدات معاناة الفقراء، ففي عام **١٧٠٠** طالب أمناء كنيسة نيويورك باعتمادات مالية من مجلس المدينة؛ لأن "صرخات الفقراء والمحتاجين بلغت حدًّا مؤسفًا".

ويصف أحد الخطابات الواردة إلى صحيفة جورنال بنيويورك في عام **١٧٣٧** أطفال الشوارع الفقراء في نيويورك قائلاً: إنهم شيء يتخذ شكلاً آدميًا، يوشكون على الهلاك من البرد، لا تستر الملابس أجسادهم، ومن سن الرابعة حتى الرابعة عشرة، يقضون أيامهم في الشوارع، وبعد ذلك يتم تشغيلهم كمبتدئين في شتى الحرف.

تزايد نمو المستعمرات وتضاعف حجمها، وكبرت المدن الكبيرة مثل نيويورك وبوسطن، ووصلت إلى الضعفين والثلاثة أضعاف، وازدهرت الزراعة والتجارة والملاحة.

ومن خلال هذا النمو كانت الطبقة العليا تحصل على معظم المزايا وتحتكر السلطة السياسية. فقد اكتشف مؤرخ درس قوائم الضرائب في بوسطن أنه في عام **١٦٨٧** كان هناك ألف مالك من بين كل السكان البالغ عددهم ستة آلاف، وأن أول خمسة بالمائة كانت عبارة عن خمسين غنيًّا يستحوذون على **٢٥٪** من الثروات.

كانت المستعمرات فيما يبدو مجتمعات طبقية متصارعة، وهذه حقيقة تم التعتيم عليها في كتب التاريخ التقليدية لصالح التأكيد والتركيز على الصراع الخارجي ضد إنجلترا واتحاد المستعمرين في سبيل القيام بالثورة. ومن ثم فإن أمريكا لم تولد حرة، بل ولدت في صراع بين حر وعبد، سيد وخادم، مالك ومستأجر، وغني وفقير. ونتيجة لذلك فكثيرًا ما واجهت السلطات السياسية معارضة صاخبة في أغلب الأحيان وعنيفة أحيانًا.

ورغم أن العمال البيض كانوا أيسر حالاً من العبيد والخدم، فقد كانوا ساخطين على المعاملة غير العادلة التي تعاملهم بها الطبقات الأكثر ثراء. ووقعت إضرابات كثيرة من قبل العمال احتجاجًا على هيمنة الحكومة على ما يتقاضونه من أتعاب. وفي ثلاثينيات القرن الثامن عشر أقدم المحتجون على الأسعار المرتفعة التي فرضها التجار في بوسطن على تدمير السوق العامة في دوك سكوير. ولم تقبض الحكومة على أي من المتظاهرين بعد أن جاءت تحذيرات منهم -أي المتظاهرين- بأنهم سوف يجلبون خمسمائة من أشد الرجال ليقوموا بتحطيم أسواق أخرى قام التجار الأغنياء بتشييدها.

وفي الوقت نفسه حث أحد المنشورات الانتخابية في نيويورك الناخبين على أن التصويت لصالح من يمثلون العمال لإزاحة ذوي الحيثيات الذين يحتقرون العمال، ويطلقون عليهم لقب الرعاع والدهماء والقطيع.

كما تظاهر أهالي بوسطن احتجاجًا على الخدمة العسكرية الإجبارية، حيث كان يتم تجنيد الرجال في الخدمة البحرية.

وخلال هذه الفتــرة كانت إنجلترا منهمكـة في سلسة من الحروب، وحاز بعض التجار أموالاً طائلة من وراء هذه الحروب، بينما لم تعن هذه الحروب لغالبية الناس سوى البطالة والفقر والضرائب العالية.

وبحلول سنوات أزمـة الثورة في ستينيات القرن الثامن عشر، كان قد بات لدى النخبة الثرية التي هيمنت على المستعمرات البريطانية في أمريكا مائة وخمسون عامًا من الخبرة، حيث تعلموا ما يمكنهم من أن يسودوا ويحكموا. وقد كانت لديهم مخاوف كثيرة، لكنهم تعلموا وطوروا أساليب تساعدهم على التعامل مع ما يتهددهم أو من يخشونه. وقد اكتشفوا أن الهنود مثيرون للقلاقل بدرجة تجعل من الصعب الاعتماد عليهم كقوى عاملة، وظل الهنود عقبة في طريق التوسع.

أما العبيد فكانوا أسلس قيادًا، كما أن الأرباح التي جُنيت من ورائهم، والتي كانت تعود على المزارع الجنوبية، شجعت على زيادة هائلة في عدد من يتم جلبهم، حتى باتوا يشكلون أغلبية في بعض المستعمرات، وبلغ عددهم خمس عدد سكان المستعمرات جميعًا. غير أن السود لم يذعنوا بدرجة كاملة، وكلما ازداد عددهم، كانت تتزايد احتمالات تمردهم.

وفي ظل العداء الهندي والخطر الناجم عن ثـورات العبيد، كان على النخبة الاستعمارية أن تنظر بعين الاعتبار إلى الغضب الطبقي لفقراء البيض من الخدم والمستأجرين وفقراء المدن ودافعي الضرائب والجنود والبحارة والمعدمين. وبمرور مائة عام على المستعمرات في منتصف القرن الثامن عشر، زادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء وزاد العنف ومخاطره، كما أصبحت مشكلة السيطرة أو الحكم أكثر خطرًا.

ولكن ماذا لو كانت هذه الجماعات المنبوذة من هنود وعبيد وبيض فقراء قد اتحدت؟ يقول أبوت سميث: إنه حتى قبل وجود سود كثيرين في القرن السابع عشر، كان ثمة خوف قائم لا يغيب من أن ينضم الخدم إلى الزنوج أو الهنود من أجل التغلب على عدد صغير من السادة.

كان في جورجيا وكارولاينا الجنوبية قدر من الاختلاط الجنسي بين البيض من الرجال والنساء الهنديات، وذلك لقلة عدد البيض من النساء. وبصفة عامة، كان يتم إبعاد الهنود. غير أن ما كان يسبب انزعاجًا شديدًا للسادة هو أن يهرب البيض من أجل الانضمام إلى قبائل الهنود، أو أن يقع مثل هؤلاء أسرى في المعارك مع نظرائهم من الهنود. وفي مثل هذه الحالات، كان البيض الذين يمنحون فرصة الاختيار يفضلون البقاء بين الهنود وثقافاتهم. أما الهنود فعند منحهم فرصة الاختيار، لم يكن واحد منهم ليختار الانضمام إلى البيض.

ومن هنــا كان العمل على الحد من هذا الخطــر. فبصفة عامة، كان يتم إبعاد الهنود عن مخالطة البيض، كما أن موظفي المستعمرات توصلوا إلى طريقة من شأنها الحد من ذلك الخطر، وذلك عن طريق احتكار الأراضي الصالحة على السواحل الشرقية، وهو الأمر الذي أجبر البيض الذين لا يملكون أرضًا على التحرك باتجاه الغرب. وكان هذا يدفعهم إلى المواجهة مع الهنود كلما اتجهوا غربًا، مما جعل منهم مصدًّا لمخاطر الهنود وحاميًا لأغنياء السواحل الشرقية.

وكان تمرد بيكــون مليئًا بالعبر والدروس، حيث تعلمت النخبة الاستعمارية أنه من المجازفة إرضاء الهنود، الذين يتناقص عددهم يومًا بعد يوم على حساب قيام تحالف قوي بين التوسعيين البيض. فمن أجل سلامتها، فضلت النخبة الاستعمارية أن تشن حربًا على الهنود تكفل لها تأييد التوسعيين البيض وتأليبهم ضد الهنود بدرجة تمنع قيام أي صراع طبقي محتمل.

كان عدد العبيد السود والقبائل الهندية في كل من كارولاينا الشمالية والجنوبية يفوق عدد البيض، لذا عمل البيض على سياسة تجعل الهنود والزنوج يأخذ بعضهم برقاب بعض، خشية أن يقضي عليهم اتحاد يقوم بين الهنود والسود. ومن ثم سُنت قوانين تحرم على الأحرار من السود السفر إلى الأراضي الهندية، واحتوت المعاهدات الموقعة مع الهنود على عبارات تلزم الهنود بإعادة العبيد الفارين.

وكان من دأب حكومة كارولاينا الجنوبية أن تخلق في الهنود كراهية ضد الزنوج. كما كان استخدام العبيد السود كجزء من الميليشيا التي تحارب الهنود جزءًا من تلك السياسة.

لكــن كثيرًا ما قام السود بالهــروب إلى القرى الهــندية، وقام هــنود قبيلتي الشيروكي والكريك بإيواء المئات من العبيد الفارين، حتى إن الكثير من الفارين اختلطوا بالقبائل الهندية وتزوجوا من بينهم وصار لهم أطفال، غير أن السياسات الوحشية المتبعة ضد السود والرشاوي المقدمة إلى بعض الهنود لتهدئة الثائرين من العبيد، جعلت الأمور دائمًا تحت سيطرة الحكومة الاستعمارية.

وكان احتمال قيام تحالف بين البيض الفقراء وبين السود يمثل أكبر المخاوف بالنسبة للأثرياء من المزارعين البيض، فلو كان هناك -كما زعم بعض المنظرين- عداء طبيعي بين الأعراق المختلفة، لكان أمر السيطرة على العبيد والفقراء من البيض أيسر. لكن الجاذبية الجنسية بين الأجناس كانت قوية، وعلى الرغم من وجود قوانين تمنع الزواج بين البيض والسود، لم تتوقف العلاقات الجنسية بينهم ولم يتوقفوا عن إنجاب أطفال مخلطين طوال الحقبة الاستعمارية. وبإعلانها أن الأطفال المخلطين غير شرعيين، عملت الحكومة الاستعمارية على بقاء هؤلاء الأطفال لدى الأسر السوداء، وذلك لكي تُبقي على السكان البيض أنقياء وتحت سيطرتها. وكان هذا التحالف بين العبيد السود والخدم البيض هو الذي جعل تمرد بيكون مصدر خوف خاص لحكام فرجينيا.

مع تزايد أعداد العبيد السود تم اقتراح سن قانون جديد يحض على استضافة عدد أكبر من الخدم البيض في المستقبل.

ولعل هذا يساعد في تفسير الأسباب التي جعلت البرلمان البريطاني في عام **١٧١٧** يصدر قانونًا يجعل من ترحيل المجرمين إلى العالم الجديد عقوبة قانونية لما يرتكب من جرائم. فبعد إصدار هذا القانون تمكنت الحكومة البريطانية من ترحيل عشرات الآلاف من المجرمين إلى فرجينيا وميريلاند ومستعمرات أخرى. كما أنه يساعد على فهم قرار العفو عن الخدم البيض في أعقاب تمرد بيكون الشهير، بينما لم يصدر عفو عن السود. ويذكر أن الزنوج كانوا ممنوعين من حمل السلاح، بينما كان الخدم البيض يتسلمون عند نهاية خدمتهم بعض السلاح. ومن ثم أصبحت الفوارق بين مكانة كل من الخدم البيض والسود أكثر وضوحًا.

وفي عشرينيات القرن الثامن عشر تم السماح للبيض بأن يلتحقوا بقوات الجيش كبدلاء للأحرار من البيض. وفي الوقت نفسه تأسست دورية لمراقبة العبيد، وكانت هذه الدوريات تتشكل من الفقراء البيض الذين كانوا يحصلون على مكافأة مالية لقاء ذلك.

وكانت العنصرية تتحول مع مرور السنوات إلى شيء عملي ذي نفع كبير؛ إذ يرى إدموند مورجان في دراسته أن العنصرية ليست شيئًا طبيعيًّا ينتج عن الاختلاف بين البيض والسود، ولكنها تأتي في رأيه نتيجة للاحتقار الطبقي، الذي يمثل وسيلة فعالة للسيطرة. يقول مورجان: لو اتحد الأحرار المحبطون مع العبيد اليائسين وجمعت بين الطرفين قضية واحدة، لكانت عواقب ذلك أسوأ من أي شيء فعله بيكون في تمرده، لقد كان حل هذه المشكلة في رأي الحكومة، وهو شيء واضح وإن سُكت عنه أو تم الإقرار به على مراحل، هو العنصرية، أي الفصل بين الخطرين من الأحرار البيض وبين الخطرين من العبيد السود عن طريق حاجز من التعالي والاحتقار العرقي.

وبقى نظام آخر للسيطرة كان تنفيذه سهلاً مع نمو المستعمرات، كما كانت له نتائج مهمة لاستمرار حكم النخبة على مدار التاريخ الأمريكي. فبين طبقة شديدي الثراء وطبقة شديدي الفقر، ظهرت طبقة متوسطة بيضاء تتألف من صغار المزارعين والفلاحين المستقلين وحرفيي المدن، الذين مثّلوا عن طريق المكافآت التي حصلوا عليها نظير ضم قوتهم لقوة كبار المزارعين والتجار، حاجزًا أو مصدًّا في مواجهة العبيد السود والهنود وشديدي الفقر من البيض.

وكان على هذه الطبقات العليا لكي تحكم أن تقدم بعض الامتيازات للطبقة الوسطى، دون أن تمس هذه الامتيازات ثروة تلك الطبقات وقوتها بسوء، وكان ذلك على حساب العبيد والهنود وفقراء البيض، وبهذا اشترت الطبقات العليا ولاء الطبقة الوسطى، ولكي تربط هذا الولاء بشيء أكثر قوة حتى من المزايا المادية، وضعت المجموعة الحاكمة في ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر، يدها على حيلة جلبت لها نتائج رائعة. وكانت هذه الحيلة تتمثل في لغة الحرية والمساواة التي استطاعت أن تجمع تحت رايتها عددًا كافيًا من البيض للقيام بالثورة ضد إنجلترا، دون أن تضع نهاية للعبودية والظلم.

الفصل الرابع

الطغيان هو الطغيان

فــي حوالي عام **١٧٧٦** توصــل بعض ذوي الأهمية في المستعمرات الإنجليزية إلى اكتشاف أثبت فاعلية كبيرة على مدار المائتي عام التالية. فقد وجدوا أنهم لو استطاعوا أن يؤسسوا أمة أو رمزًا أو وحدة شرعية يسمونها الولايات المتحدة، يصير باستطاعتهم أن يستولوا على الأراضي والأموال والسلطة السياسية من أيدي الموالين للإمبراطورية البريطانية. وفي أثناء إتمام هذه العملية، يمكنهم أن يكبحوا حركات التمرد المحتملة، ويهيئوا الظروف لخلق تأييد شعبي لحكم جديد. وعندما ننظر إلى الثورة الأمريكية بهذه الطريقة، نجد أنها كانت إنجازًا عبقريًّا وأن الآباء المؤسسين يستحقون ما كيل لهم من ثناء وما أُجري لهم من تكريم على مر السنين، فقد أبدعوا أكثر نظم الحكم القومية فاعلية في العصور الحديثة، وكشفوا للأجيال التالية عن مزايا الجمع بين السلطة وطريقة الحكم الأبوية.

وبوقــوع تمرد بيكون عام **١٧٦٠** كانت قد هبت ثماني عشرة انتفاضة تهــدف إلى الإطاحة بالحكومات الاستعمارية، كما كانت قد وقعت ست حركات تمرد من قبل السود. بالإضافة إلى أربعين مظاهرة تعددت مصادرها. وفي الوقت نفسه ظهرت نخب سياسية واجتماعية محلية تتمتع بالثبات والتماسك والفاعلية. وفي ستينيات القرن الثامن عشر فكرت هذه القيادة المحلية في إمكانية توجيه قدر كبير من طاقة التمرد ضد إنجلترا وموظفيها والموالين لها في المستعمرات. ولم يكن ذلك مؤمراة مدبرة بقدر ما كان تراكمًا لردود أفعال تكتيكية.

وبخروج إنجلترا منتصرة على فرنسا في حرب السنوات السبع، وبطرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية عام **١٧٦٣**، لم يعد الفرنسيون يمثلون تهديدًا بالنسبة للطامحين من قادة المستعمرات الذين لم يبق أمامهم سوى غريمين: البريطانيون والهنود. وكان البريطانيون قد قاموا بمغازلة الهنود بأن أعلنوا أن الأراضي الهندية الواقعة خلف جبال أبالاتشيان محظورة على البيض. ورأت النخبة الاستعمارية أنه إذ أُزيح الإنجليز من الطريق، يصبح من السهل التعامل مع الهنود.

وبخروج إنجلترا منتصرة على فرنسا في حرب السنوات السبع، وبطرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية عام **١٧٦٣**، لم يعد الفرنسيون يمثلون تهديدًا بالنسبة للطامحين من قادة المستعمرات الذين لم يبق أمامهم سوى غريمين: البريطانيون والهنود. وكان البريطانيون قد قاموا بمغازلة الهنود بأن أعلنوا أن الأراضي الهندية الواقعة خلف جبال أبالاتشيان محظورة على البيض. ورأت النخبة الاستعمارية أنه إذ أُزيح الإنجليز من الطريق، يصبح من السهل التعامل مع الهنود.

وبهزيمة الفرنسيين استطاعت بريطانيا أن تولي اهتمامًا أكبر بإحكام السيطرة على المستعمرات، والتي كانت ذات أهمية كبرى للاقتصاد البريطاني. وقد زادت الحرب من معاناة الفقراء وزادت حدة البطالة، بينما جلبت الحرب المجد للجنرالات والثروة للتجار.

ولم يكن أمام الطبقات الدنيا سوى الحيلة، ففي بوسطن بدأت هذه الطبقات في استخدام اجتماعات مجلس المدينة لبث هموهم وشكاواهم. ويبدو أن ما حدث في بوسطن هو أن قام عدد من المحامين والصحفيين والتجار الذين ينتمون إلى الطبقات العليا بتنظيم مؤتمر بوسطن، وكان هؤلاء الرجال من أمثال جيمس أوتيس وصامويل آدامز، مستبعدين من دوائر الحكم المقربة إلى إنجلترا، ومن خلال كتاباتهم وخطبهم كونوا رأيًا للطبقة العاملة ودعوا العامة إلى التحرك وشكلوا سلوك هذه الطبقة.

ويبدو أن بوسطن كانت تغلي بالغضب الطبقي في تلك الأيام. وحدث انفجار العامة بعد صدور قانون طابع البريد في **١٧٦٥**، وهو القانون الذي كان البريطانيون يفرضون من خلاله ضرائب على سكان المستعمرات، وذلك تغطية لتكاليف الحرب الفرنسية التي عانى منها هؤلاء. وحدثت عمليات عنف وحرق لمنازل بعض الأثرياء. وكانت تلك إحدى اللحظات التي بلغ فيها الغضب ضد الأثرياء مبلغًا أبعد مما تمناه قادة مثل أوتيس، هل كان يتم توجيه الكراهية الطبقية بحيث تركز على النخبة الموالية لبريطانيا ولا تنال من النخبة الوطنية؟ كان ما يشغل تفكير قادة الثورة هو العمل على محاصرة مثل هذه المشاعر بالظلم داخل حدود لا تتعداها.

أثار قادة حركة التمرد الجماهير ضد قانون طابع البريد، ثم خشي القادة من أن يتحول الغضب الجماهيري إلى ثرواتهم -أيضًا.

قام الأثرياء بإنشاء دوريات حراسة مسلحة، ودعوا إلى عقد اجتماع لمجلس المدينة، وأدان نفس القادة الذين خططوا للمظاهرة عنف الجماهير. وقام القادة المحافظون بقطع علاقاتهم مع المتظاهرين.

عندما بدأ البرلمان البريطاني في محاولته التالية لفرض ضرائب على المستعمرات، قام قادة المستعمرات بإعلان مقاطعتهم لبضائع الحكومة البريطانية، غير أنهم أكدوا: لا لحركات الجماهير أو أحداث الشغب، ولتتمتع ممتلكات أعدى أعدائكم ومن يعملون معهم من أفراد بكل أمان.

كانت أعمال المصادرة ونشر القوات البريطانية كبيرة الضرر بشكل مباشر على البحارة وكادحين آخرين. إذ بدأ الجنود في الاستحواذ على وظائف العمال والتي كانت في الأساس شحيحة، مما أسفر عن اشتباكات عنيفة بين الجنود والمستعمرين.

وفي فرجينيا بات واضحًا للطبقة العليا أنه لا بد من فعل شيء لإقناع الطبقات الدنيا بالانضمام لقضية الثورة ولتوجيه شحنة غضبهم ضد إنجلترا. أظهرت تلك الظروف البلاغة الخطابية لعدد من الشخصيات مثل باتريك هنري، والذي كان مؤثرًا في الجماهير بشدة. كانت خطاباته تدعو لتخفيف حدة التوتر بين الطبقات وإلى تشكيل رباط متين في مواجهة البريطانيين، وجاءت خطبه في لغة تناسب كل الطبقات.

كما ساهم كتيب توب بينْ "الفطرة السليمة" في ذلك الاتجاه، وطبع منه طبعات عديدة، ودعا الكتاب إلى الاستقلال عن بريطانيا، مستعرضًا التاريخ الموجع للملكية البريطانية، واستعرض الكتيب بين المزايا العملية للارتباط بإنجلترا والانفصال عنها، مؤكدًا أنه من الأفضل الانفصال عنها؛ لأن الارتباط بها يجعلها هي السوق الوحيدة للمحاصيل كالذرة مثلاً، كما أن التبعية لبريطانيا يؤدي بالقارة إلى التورط في حروب أوروبية، مع أمم تنشد صداقة أمريكا.

بحلول ذلك الوقــت كانت قد تكونت بالفعل عاطفة قوية من أجل الاستقلال؛ إذ أعلنت كل القرارات المتخذة في كارولاينا الشمالية الاستقلال عن إنجلترا في مايو من عام **١٧٧٦**، وأكدت أن القانون البريطاني باطل، وأنه فقد كل شرعية ملزمة. وأعلن مجلس ولاية ماساتشوستس بيانًا معلنين فيه الاستقلال: "لذا فإننا نعلن بكل ازدراء تراجعنا عن الارتباط بمملكة من العبيد، ونودع بريطانيا وداعًا نهائيًّا". كانت هذه الفقرة هي افتتاحية وثيقة إعلان الاستقلال، وفي الفقرة الثانية جاء البيان الفلسفي التالي بما يبسطه من قوة ووضوح: "نؤمن أن الرجال جميعًا خلقوا سواسية، وأن الله قد منحهم حقوقًا ليس من حق أحد إنكارها، من بينها الحق في الحياة والحرية ونشدان السعادة. ومن أجل ضمان هذه الحقوق، قامت حكومات بين الشعوب، تستمد سلطتها العادلة من رضى المحكومين، ومتى أصبح أي شكل من أشكال الحكم هادمًا لهذه الغايات، فإن من حق الشعب أن يسقطه ويأتي بحكومة جديدة".

بيد أن وثيقة إعــلان الاستقلال قد استبعدت في وضوح، بعض الأمريكيين خارج دائرة المصلحة المشتركة، وهؤلاء هم الهنود الحمر والعبيد والنساء، بل إن إحدى فقرات الوثيقة اتهمت الملك بتحريض العبيد والهنود على الثورة والتمرد.

كان توماس جيفرسون قد كتب فقرة في وثيقة إعلان الاستقلال متهمًا الملك البريطاني بجلب العبيد من إفريقيا إلى المستعمرات، وقمع كل محاولة تشريعية تحاول تحريم أو وضع قيود على هذه التجارة اللعينة. لقد بدا أن ذلك يعبر عن السخط الأخلاقي على نظام الرق وتجارة الرقيق، غير أن مقت جيفرسون الشخصي من نظام الرق لابد أن يوضع جانبًا إلى جنب مع حقيقة ثابتة تتمثل في أنه كان يملك مئات من العبيد حتى يوم وفاته. لقد كان السبب وراء ما كتبه جيفرسون هو الخوف المتزايد بين أهالي فرجينيا وبعض آخر من الجنوبيين من العدد المتزايد للعبيد في المستعمرات حيث باتوا يشكلون **٢٠٪** من جملة السكان، وكان الخوف يزداد من احتمال ثورة العبيد مع تزايد أعدادهم. والطريف أن مجلس المستعمرات قام بحذف الفقرة المشار إليها؛ لأن مالكي العبيد أنفسهم لم يوافقوا على مجرد الرغبة في إنهاء تجارة الرقيق، وبهذا تم حذف مجرد الإيماءة إلى العبيد في بيان الحرية العظيم للثورة الأمريكية.

ليس من المحتمل أن استعمال عبارة "خلق الرجال جميعًا سواسية" كان محاولة متعمدة لإصدار حكم ما على النساء، فحقيقة الأمر أن النساء كانت دون الاعتبار بدرجة تجعلهن غير جديرات بالذكر، فضلاً عن غيابهن من الناحية السياسية.

بعد أربعة أيام من قراءة الوثيقة، أمرت لجنة بوسطن للاتصالات رجال المدينة بالتجمع في حديقة بوسطن العامة وذلك من أجل الالتحاق بالجيش. واستطاع الأغنياء -كما تبين فيما بعد- أن يتهربوا من التجنيد عن طريق دفع أموال لبدلاء لهم، وكان على الفقراء أن ينهضوا للخدمة في صفوف الجيش، الأمر الذي أدى إلى التظاهر والتصايح بكلمات مثل: "الطغيان هو الطغيان أيًّا كان مصدره".

الفصل الخامس

نوع ما من الثورة

انتصر الأمريكيون على الجيش البريطاني بفضل وجود شعب كان مسلحًا بالفعل؛ إذ كان يمتلك كل أمريكي أبيض سلاحًا يجيد استعماله، أما العامة من الفقراء فلم تكن القيادة الثورية تثق بهم. ولما كانت القيادة الثورية تعلم أن الثورة لا تروق الهنود ولا العبيد فقد وجهت جل اهتمامها إلى مغازلة الأمريكيين البيض المسلحين. ولم يكن هذا الأمر هينًا؛ فرغم حماس الحرفيين والبحارة وآخرين ضد البريطانيين، لم يكن الحماس العام من أجل الحرب قويًّا، وبينما التحق كثيرون من البيض بالخدمة العسكرية بعض الوقت أثناء الحرب، فلم يبق منهم في الخدمة إلا قليلون. في دراسة جون شاي عن جيش الثورة والتي تحمل عنوان "شعب مسلح لا حصر له" يقول شاي: إن ثلث السكان -تقريبًا- كان ضالعًا في الخيانة. بينما قدر جون آدمز أن ثلث السكان كان معارضًا للثورة، في مقابل ثلث آخر كان مؤيدًا لها، بينما بقي الثلث الأخير محايدًا.

كان الملتحقون الأوائل بالجيش "علامات على الاحترام أو المواطنة الكاملة على الأقل" على حد قول شاي. وكان يتم استبعاد الهنود الودودين والزنوج الأحرار والخدم البيض والأحرار البيض الذين لم يكن لهم سكن ثابت. غير أن الاحتياج الشديد أدى في النهاية إلى تجنيد البيض الأقل احترامًا. وسمح القانون في كل من ماساتشوستس وفرجينيا بتجنيد المشردين في صفوف الجيش. لقد أصبحت القوات العسكرية في حقيقة الأمر، المكان الموعود بالنسبة للفقراء أملاً منهم في الترقي واكتساب بعض المال وتغيير المكانة الاجتماعية. وهنا كانت الخدعة التقليدية التي يقوم من خلالها المسؤولون عن أي نظام اجتماعي بتعبئة المتمردين من السكان، وتتمثل الخدعة في تقديم فرصة المغامرة والمكافآت الخاصة بالخدمة في صفوف الجيش وذلك لدفع الفقراء إلى القتال في سبيل قضية ربما لا يرون بوضوح أنها قضيتهم.

همش النزاع العسكري قضايا أخرى، ودفع الناس إلى الانحياز إلى جانب الثورة. ويبدو أن النخب الحاكمة تعلمت عبر الأجيال سواء كانت واعية بذلك أم غير واعية، بأن الحرب تجعلهم أكثر إحساسًا بالأمان في مواجهة القلاقل الداخلية.

كانت لقوة الاستعداد العسكري طريقتها الخاصة في دفع المحايدين إلى الانضمام لصفوف الجيش. ففي ولاية كينيكتكت صدر قانون بتجنيد كل الذكور ما بين السادسة عشرة والستين، واستثنى القانون بعض موظفي الحكومة والوزراء وطلاب جامعة ييل وهيئة التدريس بها. وعلى من يريد تفادي الخدمة دفع خمس جنيهات. وعوقب من تقاعس بالحبس حتى اضطروا للمشاركة في الحرب مقابل الإفراج عنهم.

إن ما يبدو على أنه ممارسة للديمقراطية في مسألة الانضمام إلى القوات العسكرية في العصر الحديث ليس سوى طريقة مختلفة لإجبار أعداد كبيرة من المعارضين على الالتحام بالقضية الوطنية، بحيث لا يجدون أمامهم في النهاية سوى الإيمان بها.

خسر الأمريكيون المعارك الأولى بنكرهيل ومرتفعات هارلم، وكسبوا معارك صغيرة في ترينتون، ثم كسبوا معركة كبيرة في ساراتوجا بنيويورك عام **١٧٧٧**، وبينما اضطر جيش جورج واشنطن إلى المرابطة في فالي فورج لشدة البرد، كان بنيامين فرانكلين يبحث عقد تحالف مع فرنسا التي كانت تتشوق إلى الثأر من إنجلترا. تمكن الأمريكيون بمساعدة جيش فرنسي كبير ونتيجة لقيام الأسطول الفرنسي بسد الطريق أمام الإمدادات البريطانية من إحراز النصر النهائي في الحرب، وذلك في يورك تاون - فرجينيا في عام **١٧٨١**.

وخلال ذلك كله لم تتوقف الصراعات المكبوحة بين الأغنياء والفقراء عن الظهور. وحدثت الكثير من تهديدات بممارسة العنف ضد الأثرياء.

كانت غالبية المستعمرين البيض، سواء كانوا يملكون قطعًا صغيرة من الأرض أو لا يملكون، لا يزالون أفضل حالاً من العبيد والخدم والهنود، وكانت تتم مغازلتهم من أجل الانضمام إلى تحالف الثورة. ولكن لما أصبحت التضحيات من أجل الحرب أكثر مرارة، بات من الصعب على الفقراء أن يقبلوا بأوضاع الأغنياء وبالمزايا التي يتمتعون بها، إذ يذكر أن نسبة عشرة بالمائة من السكان البيض كانت تملك نصف ثروة البلاد وتستعبد سبع عدد السكان مجتمعين.

كان يهيمن على مجلس المستعمرات الذي كان يحكم أثناء حرب الاستقلال، عدد من الأثرياء الذين تربطهم أواصر أسرية وعلاقات عمل استطاعت أن تربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب.

حدثت بعض التمـردات العسكرية فـي بنسلفانيا، وعالج جورج واشنطن الامر سريعًا خوفًا من تفشيه، وصرف لهم الرواتب، وتمت مفاوضات تم من خلالها تسريح نصف الجنود في بنسلفانيا وإعطاء النصف الآخر إجازة. لكن حين قام تمرد مماثل في نيو جيرسي كان واشنطن مستعدًّا له وسيطر عليه وقام بإعدام بعض قادته.

في الوقت الذي لم يكن يستطيع فيه جنود الثورة أن يتمردوا ضد السلطة، كان باستطاعة المدنيين أن يفعلوا ذلك بسهولة. وقاومت الطبقات الدنيا في الجنوب محاولات تعبئتهم في سبيل الثورة؛ إذ كانوا يرون أنهم تحت سيطرة نخبة سياسية تحارب بريطانيا. في ميريلاند على سبيل المثال، وطبقًا للدستور الجديد الذي صدر عام **١٧٧٦** كان على من يريد أن يترشح لوظيفة الحاكم أن تبلغ قيمة أملاكه خمسة آلاف جنيه وألف جنيه لمن يترشح لمقعد سيناتور. ومن ثم كان ذلك حكرًا على **١٠٪** من السكان.

ولما كانت نسبة العبيد السود تصل إلى **٢٥٪** من السكان -و **٥٠٪** في بعض المقاطعات- كان الخوف من ثوراتهم يتزايد. وكان جورج واشنطن قد رفض طلبات السود بالمشاركة في جيش الثورة في مقابل حريتهم. لكن عندما أعطى القائد البريطاني في فرجينيا وعدًا بالحرية إلى العبيد المنضمين لقواته، خلّف ذلك ذعرًا كبيرًا.

والشيء الذي كان أكثر إزعاجًا للنخبة الحاكمة هو تمرد البيض في ميريلاند ضد الأسر البارزة التي كانت تؤيد الثورة وتحتكر السلع. ورغم ذلك استطاعت سلطات ميريلاند تقديم بعض التنازلات لهؤلاء. كان ذلك تضحية من الطبقة العليا من أجل الإبقاء على السلطة، وقد آتت هذه التضحية أكلها سريعًا.

كانت الامتيازات بصفة عامة وفي كل الولايات مستمرة في حدها الأدنى، ولم تختلف الدساتير الجديدة التي تبنتها كل الولايات كثيرًا عن الدساتير القديمة، ورغم أن مؤهلات الملكية الخاصة للاشتراك في التصويت وفي شغل المناصب الحكومية قد قلت في بعض الحالات، فقد زادت في ولاية ماساتشوستس. كانت بنسلفانيا هي الولاية الوحيدة التي قامت بإلغاء هذه المؤهلات، أما القوانين الجديدة والخاصة بالحقوق فقد تضمنت بعض المواد المعدلة، في كارولاينا الشمالية أضيف إلى الدستور الذي ينص على الحرية الدينية: "إنه لن يسمح بتفسير ما ذكر بحيث يعفى الوعاظ من تهم الخيانة أو التحريض على الفتنة، أو يعفيهم من المثول أمام المحاكم وتعرضهم للعقاب".

أحيانًا ما يقال عن الثورة الأمريكية بأنها هي التي أتت بمسألة الفصل بين الدولة والكنيسة، ولقد صرحت الولايات الشمالية بمثل هذا الكلام، غير أنها بعد عام **١٧٧٦** تبنت قوانين ضريبية تجبر الناس على مؤازرة التعاليم المسيحية.

وفي تعليقه على مقولة قاضي المحكمة الدستورية العليا ديفيد بروير في عام **١٨٩٢** والتي قال فيها: "هذه أمة مسيحية"، قال وليم ماكلولين: إن مسألة فصل الكنيسة عن الدولة لم تعر بالاً ولم تنفذ، لم يترك الدين لحاله، بل كان يتسرب إلى كل وجوه الحياة الأمريكية ومؤسساتها.

إننا لو أردنا أن ندرس تأثير الثورة على العلاقات الطبقية، فبإمكاننا النظر إلى ما حدث للأراضي التي صودرت من أفراد جماعة المخلصين، لقد وزعت هذه الأراضي بحيث أُعطي قادة الثورة فرصتين: الأولى: أن يزدادوا هم وأصدقاؤهم ثراء، والثانية: أن يوزعوا بعض الأراضي على صغار الفلاحين وذلك طمعًا في خلق قاعدة عريضة لتأييد الحكومة الجديدة. ولقد بات ذلك في حقيقة الأمر، صفة من صفات الأمة الوليدة، فقد خلقت هذه الأمة، إذ وجدت نفسها تمتلك ثروات طائلة، أغنى طبقة حاكمة في التاريخ فضلاً عن أنه تبقى لديها ما تقدمه للطبقات المتوسطة كي تقوم بدور الحاجز والمصد بين الأثرياء والمعدمين.

كان ما يملكه الموالون لبريطانيا من أراض شاسعة أحد الدوافع الكبيرة للثورة، فقد كان اللورد فيرفاكس في فرجينيا يمتلك أكثر من خمسة ملايين آكر تمر بواحد وعشرين مقاطعة، وكان دخل اللورد بالتيمور من أملاكه في ميريلاند يتجاوز ثلاثين ألفًا من الجنيهات سنويًّا. وبعد الثورة تمت حماية اللورد فيرفاكس لصداقته بجورج واشنطن، أما باقي الموالين، خاصة الغائبين منهم، فقد تمت مصادرة أراضيهم. وفي نيويورك زادت أملاك صغار الفلاحين بعد الثورة، وقلت أعداد الفلاحين المستأجرين الذين كانوا مصدر اضطرابات كثيرة في سنوات ما قبل الثورة.

ورغم أن عدد الفلاحـــين المستقلين قد ارتفع، فإن البنية الطبقيـــة لم تتغير بطريقة جذرية؛ إذ جرت تغييرات على المجموعة الحاكمة، نتيجة تدهور المكانة الاجتماعية بشكل واضح لعائلات التجار سواء في بوسطن أو نيويورك أو فلادلفيا. وأحيانًا ظهر هذا التدهور على نفس بيوت الذين فشلوا في أعمالهم أو عانوا مصادرة الأملاك والنفي، لولائهم للتاج البريطاني.

يلخص إدموند مورجان الطبيعة الطبقية للثورة بقوله: إن اشتراك الطبقات الدنيا في الكفاح من أجل الاستقلال لا يجب أن يخفي أن هذا الكفاح كان من أجل السلطة وحيازة المناصب، وكان يدور بين أفراد الطبقة العليا، أي بين الجدد وبين المخضرمين.

وفي رؤيته للموقف عامة بعد الثورة يعلق **ريتشارد موريس قائلاً:** "لا يرى المرء سوى الظلم والتفاوت أينما ولّى وجهه".

إنه يرى أن كلمة "الشعب" في عبارة "نحن شعب الولايات المتحدة" لم تكن تعني الهنود الحمر أو السود أو فقراء البيض أو النساء. كما أن عدد الخدم من ذوي العقود قد بلغ أعلى معدل له. والثورة لم تفعل شيئًا يخفف من حدة الاستعباد الأبيض.

في كتابه (الخروج من ماضينا) يقول كارل ديجلر: "لم تصل طبقة اجتماعية إلى السلطة عبر باب الثورة، إذ خرج مهندسو الثورة في الأساس من الطبقة الاستعمارية الحاكمة". كان جورج واشنطن أغنى رجل في أمريكا، وكان جون هانكوك من أثرى تجار بوسطن، وبالمثل كان بنيامين فرانكلين من أثرى أصحاب المطابع.

من ناحية أخرى أُدخل الحرفيون والعمال والبحارة وصغار الفلاحين ضمن كلمة الشعب، وذلك عن طريق بلاغة الثورة ورفقة الخدمة العسكرية وتوزيع بعض الأراضي. وهكذا تم تكوين كيان محسوس من الممكن أن يطلق عليه "أمريكا" حتى مع استبعاد المقهورين والمهمشين المهملين.

يبدو أن الثورة على الحكم البريطاني قد أوجدت جماعة من الصفوة الكولونيالية تحل محل أصحاب الولاء لإنجلترا، بحيث تقدم بعض المزايا لصغار ملاك الأرض وتترك العاملين من البيض الفقراء والفلاحين المستأجرين في وضع لا يختلف عن وضعهم القديم.



ترى ماذا كانت تعنـي الثورة لأهل البـلاد (الهنود الحمر)، لقد تجاهلتهم كلمات إعلان الاستقلال الرائعة، التي لم تعتبرهم متساوين في الحقوق مع البيض. وبعد أن خرج البريطانيون بات بإمكان الأمريكيين أن يبدأوا ممارسة لا تعرف الرحمة من أجل إزاحة الهنود خارج أرضهم، بل وقتلهم متى قاوموا ذلك. خلاصة القول كما يراها فرانسيس جيننجس أن الأمريكيين البيض كانوا يقاتلون الهيمنة الإمبريالية البريطانية في شرق البلاد تمهيدًا لممارسة إمبريالتهم الخاصة في غربها.

لما قامت حرب السنـوات السبع بين الإنجليز وفرنسا، حارب الهنود إلى جوار الفرنسيين. فقد كان الفرنسيون تجارًا لا غزاة أو محتلين لأرض الهنود. أما الإنجليز فكانت عيونهم دائمًا تتطلع إلى ما في أيدي الهنود من الأراضي وأماكن الصيد.

بانتهاء الحرب عام **١٧٦٣** تخلى الفرنسيون للإنجليز عن الأراضي الواقعة غرب سلسلة جبال أبلانشيان، متجاهلين حقوق حلفائهم القدامى من الهنود، فما كان من هؤلاء إلا أن اتحدوا لشن حرب على الحصون الغربية للإنجليز. وبتوجيهات صادرة من الجنرال البريطاني جيفري أمهرست تم منح زعماء الهنود الذين كان يجري معهم المفاوضات، أغطية جيء بها من مستشفى الجدري، ويعد هذا جهدًا رائدًا فيما يسمى الآن بالحرب البيولوجية، فقد انتشر الوباء سريعًا بين الهنود.

وبالرغم من كل ذلك، وبالرغم من حرق قراهم، لم يستطع الإنجليز تحطيم إرادة الهنود الذين استمروا في شن حرب العصابات حتى تم توقيع اتفاقية سلام تعهد فيها الإنجليز بعدم إقامة مستوطنات على الأراضي الهندية خلف جبال أبالانشيان، وكان ذلك هو الإعلان الملكي لعام **١٧٦٣** الذي أوغر صدور الأمريكيين. ولعل ما حدث يشرح لنا سبب انضمام معظم الهنود إلى القوات البريطانية أثناء الثورة الأمريكية. أما بعد الثورة وبعد رحيل حلفائهم الفرنسيين ثم الإنجليز كان على الهنود وحدهم أن يواجهوا أمة تشتهي مصادرة أرضهم.

بدأ الأمريكيون في التصرف عن اقتناع بأن أراضي الهنود هي أرضهم هم، وبدأوا في إرسال حملات باتجاه الغرب لتأكيد ذلك الزعم، واندلعت المعارك بينهم وبين الهنود. لم يكن أمام الفقراء الذين كانوا ينشدون الأرض سوى التوجه ناحية الغرب. ليقوموا بدور الحصن أو المتراس الذي يجمي أغنياء الجهة الشرقية من الولايات المتحدة.

كان موقف العبيد السود، كنتيجة للثورة الأمريكية أكثر تعقيدًا، فقد حارب آلاف منهم إلى جوار البريطانيين، وكان من بينهم خمسة آلاف مع الثوار جاء معظمهم من الشمال. واستغل آلاف من العبيد ظروف الحرب ونالوا حريتهم بأن غادروا البلاد على متن السفن البريطانية، بنهاية الحرب، إما للاستقرار في إنجلترا أو الهند الغربية أو إفريقيا، وآثر آخرون البقاء في أمريكا كأحرار عن طريق تفادي اللقاء بسادتهم. في الولايات الشمالية أدى انضمام السود إلى قوات الجيش وقلة الدوافع الاقتصادية لامتلاك العبيد، فضلاً عن النمط البلاغي الذي انتهجته الثورة، إلى نهاية العبودية، وإن كان إيقاع هذه النهاية بطيئًا، فحتى عام **١٨٤٠** كان بالشمال وحده ألف من العبيد، أما في الجنوب السفلى فقد شهد توسعًا في تجارة الرقيق نتيجة لزيادة مزارع القطن والأرز.

بدأ السود في المطالبة بحرياتهم ومنحهم حقوقًا متساوية مع البيض، مستشهدين بوثيقة الاستقلال. غير أن بنية المجتمع الأمريكي وقوة مزارع القطن وتجارة الرقيق والعلاقة بين النخب الشمالية والجنوبية والتاريخ الطويل للتمييز العرقي في المستعمرات حالت دون تحقيق أحلام السود في ذلك الوقت.

كان الوضع المتدني للسود واستبعاد الهنود من المجتمع الجديد وإرساء مبدأ السيادة للأغنياء والأقوياء في الأمة الجديدة موجودًا قبل وبعد الثورة. وجاء دستور الولايات المتحدة لكي يدعم قوة ذلك الوضع ويضع قواعد ثابتة له ويضفي عليه صفة الشرعية.

وفي بداية القرن العشرين خرج المؤرخ تشارلس بيرد برأي في الدستور الأمريكي أثار عليه غضبًا شديدًا. **يقول بيرد:** إن الأغنياء انطلاقًا من الحفاظ على مصالحهم، لا بد أن يسيطروا على الحكومة إما بشكل مباشر أو يسيطروا على القوانين التي تؤدي بها الحكومة عملها.

وقد وجد بيرد أن غـالبية هؤلاء القـادة الذين تجمعوا في فلادلفيا في عام **١٧٨٧** لوضع الدستور كانوا يعملون بالمحاماة، وأن معظمهم كانوا من الأثرياء الذين يملكون الأرض والعبيد والمصانع والسفن، وأن نصفهم تقريبًا من المرابين، وأن أربعين منهم -كان عددهم **٥٥** عضوًا- كانوا يتقاضون مرتبات من الحكومة، ومن ثم وجد بيرد أن معظم واضعي الدستور كانت لهم مصالح اقتصادية مباشرة في تأسيس حكومة فيدرالية قوية، فأصحاب المصانع في حاجة إلى تعريفة تحمي مصالحهم، والمرابون كانوا في حاجة لوقف استعمال النقود الورقية في سداد الديون، والباحثون عن الأرض كانوا في حاجة إلى حماية أثناء غزوهم الأراضي الهندية، ومالكو العبيد في حاجة إلى أمن فيدرالي لكبح ثورات العبيد والفارين منهم، والذين يتقاضون رواتب من الحكومة كانوا في حاجة إلى حكومة قادرة على جمع الأموال عن طريق فرض نظام ضريبي فعال في كل الولايات.

كان ثمة أربع جماعــات لم يمثلهم أحد في الاجتمــاع الخاص بوضع الدستور: العبيد، والخدم ذوو العقود، والنساء، والمعدمون من الرجال، وبذلك لم يعكس الدستور مصالحهم.

يوضح بيرد أن كلامه لا يعني اعتقاده بأن الدستور وضع من أجل منفعة الآباء المؤسسين بصفة شخصية، وإن كان من الصعب تجاهل ثروة بنيامين فرانكلين الضخمة، أو الأراضي الشاسعة التي يملكها واشنطن. لقد وضع الدستور من أجل مصالح ومنفعة الجماعات التي كان يمثلها الآباء المؤسسون.

كان هناك سخط ضـد الهيئة التشريعية لمدينة بوسطـن، فقد رفع الدستور الجديد مؤهلات الملكية من أجل الحصول على الحق في التصويت، كما رفضت إصدار الأوراق المالية كي تسهل على الفلاحين سداد ديونهم، مما تسبب في حدوث عدد من حركات التمرد كان أشهرها تمرد الفلاحين الذين قاموا بانتفاضة في صيف **١٧٨٦** عرفت باسم تمرد شايز، الذي قاد العديد من المواجهات ضد ميليشات الحكومة. وبعد عناء تمكنت الحكومة من إنهاء ذلك التمرد وإعدام عدد من قادته، بينما تم العفو عن البعض ومنهم شايز الذي مات فقيرًا منسيًّا في عام **١٨٢٥**.

الوحيد الذي تحدث عن هذه التمردات كشيء صحي للمجتمع هو توماس جيفرسن سفير الولايات المتحدة في فرنسا أثناء تمرد شايز. إذ كتب: إنني أومن أنه لشيء طيب أن يحدث تمرد صغير من وقت لآخر، إنه علاج ضروري لصحة الحكومة، وإني لأعوذ بالله من أن تمر علينا عشرون سنة دون وقوع تمرد، لا بد أن تروى شجرة الحرية من وقت لآخر بدماء الوطنيين والطغاة، فتلك الدماء هي سمادها الطبيعي.

لكن جيفرسن كـان بعيدًا عن قلب الأحداث، فنخبة البلاد السياسية والاقتصادية لا تتمتع بالتسامح، وكان يقلقها أن يصير تمرد شايز نموذجًا يحتذيه الآخرون. ومن هنا قام الجنرال هنري نوكس أحد المحاربين القدامى في جيش جورج واشنطن، بتأسيس جمعية لقدامى المحاربين، كانت يقوم بمراقبة الحركات الراديكالية في البلد الوليد.

يعكس الدستور مدى تعقيد النظام الأمريكي، ذلك أنه يخدم مصالح نخبة ثرية، لكنه -أيضًا- يخدم مصالح صغار الملاك والحرفيين ذوي الدخل المتوسط والفلاحين، وذلك من أجل بناء قاعدة عريضة من الدعم والتأييد. ويمثل هؤلاء نوعًا من المصدات أو المتاريس في مواجهة السود والهنود وشديدي الفقر من البيض. إن مثل هؤلاء يمكنون النخبة من أن تحكم سيطرتها بأدنى حد من القوة وأقصى حد من القانون، وأصبح كل ذلك مستساغًا بفضل أدبيات وطنطنة الوطنية والوحدة. وأصبح الدستور أكثر قبولاً لدى العامة على وجه العموم.

من المؤكد أن الآباء المؤسسين لم ينشدوا توازنًا متساويًا بين العبيد والسادة، أو بين المعدومين وأصحاب الأملاك، أو بين الهنود والبيض. بل إنهم لم ينظروا إلى ما يقرب من نصف عدد السكان. فقد كان هؤلاء غير مرئيين في الديمقراطية السياسية الجديدة، كان هؤلاء هم نساء أمريكا.

الفصل السادس

النساء بين الحميمية والقهر

عندما نقرأ تاريخ الولايات المتحدة، من الوارد أن تجد نصف سكانها منسيين؛ فقد كان المستكشفون ومالكو الأراضي والتجار والقادة السياسيون والعسكريون رجالاً، ومن ثم كان غياب النساء والتجاهل الكامل لهن كان علامة على مكانتهن المطموسة.

كانت النساء في هذا الاختفاء والتجاهل، تشبه شيئًا كالعبيد السود. ويبدو أن الخصائص الفيزيقية للنساء كانت شيئًا ملائمًا بالنسبة للرجال الذين استطاعوا أن يستخدموا ويستغلوا ويتعلقوا بامرأة ما كانت تقوم بدور الخادمة وفي الوقت نفسه عشيقة ورفيقة ومعلمة وحارسة للأطفال.

لقـد وجدت المجتمعات القائمة على الملكية الخاصة والتنافس أنه من المفيد وضع النساء في هذه المكانة الدونية، وهي مكانة تشبه مكانة عبيد البيوت فيما يتعلق بمسألة الحميمية والقهر، ولكنه وضع يتطلب نتيجة هذه الحميمية وطول الارتباط بالأطفال، مكانة خاصة قد تتحول في موقف ما إلى المعاملة على قدم المساواة مع الرجال. غير أنه من الصعب اقتلاع جذور القهر الخاص؛ أي: ذلك القهر الذي يمارسه الرجل على من في بيته.

وفـي المجتمعات الأولى سـواء في أمريكا أو غيرها، حيث يعيش الأبناء والآباء والأمهات والأعمام وباقي العائلة معًا، وحيث الأملاك للجميع، لقيت المرأة معاملة راقية دونها بكثير ما لقيته المرأة من معاملة في المجتمعات البيضاء، التي غزت المجتمعات الأولى وجلبت معها الحضارة والملكية الخاصة.

كان من شأن الظروف المحيطة بمجيء المستوطنين البيض الأوائل إلى أمريكا أن تخلق أوضاعًا مختلفة بالنسبة للنساء، ولما كانت المستوطنات الأولى تتكون من الرجال، فكان يتم جلب النساء كجاريات من أجل التسرية الجنسية وحمل الأطفال.

وفي عام **١٦١٩** وصلت على متن سفينة إلى جيمس تاون **٩٠** امرأة تبدو عليهن أمارات القبول والنقاء والبكارة، تم بيعهن برضائهن إلى بعض المستوطنين كزوجات، وكان مهرهن هو أجرة نقلهن من بلادهن إلى العالم الجديد.

ووصلت إلى أمريكا في تلك السنوات المبكرة نساء كثيرات عملوا كخادمات لأجل مسمى، وعشن حياة لا تختلف كثيرًا عن حياة العبيد، وهو ما جعل العديد من الخادمات يلجأن للمقاومة السلبية عن طريق إنجاز أقل قدر من العمل وخلق المصاعب والمشاكل، وهو ما كانت تواجهه المحاكم بقوة حتى تعود الخادمة سيرتها الأولى.

أصبح الاعتداء الجنسي من قبل السادة على الفتيات الخادمات أمرًا شائعًا. كما لقت العديد من النساء حتفهن أثناء نقلهن لأمريكا في سفن مماثلة لناقلات العبيد، وفي ظروف سيئة للغاية.

وليس معنى ذلك أن الحرائر البيض كن بمعزل عن المتاعب، فحتى هؤلاء اللائي لم يجئن كإماء أو كخادمات ولكن كزوجات للمستوطنين الأوائل، قد واجهن مصاعب خاصة.

وكثيرًا ما حظي هؤلاء النسوة اللائي شاركن في بناء حياة في العراء مع أزواجهن باحترام خاص؛ لأن الرجال كانوا في أمس الحاجة إليهن.

وعلى مدار القرن الأول وأكثر من الوصول إلى أمريكا، كانت النساء يقتربن من مكانة المساواة بالرجال، غير أن النساء جميعًا كن يحملن على كواهلهن أفكارًا

جيء بها مع المستعمرين، وهي أفكار تهيمن عليها التعاليم المسيحية، وكان قد تم تلخيص القانون الإنجليزي في عام **١٦٣٢** على شكل وثيقة أطلق عليها "قانون حقوق المرأة" جاء فيها: عندما يتوحد مجرى مائي صغير مع أنهار كبيرة فإن النهير يفقد اسمه، والمرأة بمجرد زواجها تسمى مقنّعة، أي: محتجبة، أي: تعيش في الظل، لقد فقدت مجراها الخاص، بل أوشك بكل صدق أن أقول لأي امرأة تزوجت بأن ذاتها الجديدة هي ذات من يعلوها مرتبة، رفيقها وسيدها.

كما كان من حق الرجل تأديب زوجته بالضرب بدون أن يلحق بها إصابة دائمة أو ضربها حتى الموت، كما كان من حق الزوج أن يأخذ الدخل المادي للزوجة إذا كان هو الذي يقوم بجمع أجرة عملها. كما كان حمل المرأة خارج نطاق الزواج جريمة تستوجب العقاب، بينما آباء الأطفال لا يمسهم القانون بسوء.

لكن من الملحوظ أن النساء تمردن على هذه النظرة، وواجهن عراقيل كثيرة في الطريق، فعيون سادتهن ترصد حركاتهن، وكلهن معزولات عن بعض داخل البيوت، ومن ثم كن يفتقدن الرفقة اليومية التي من شأنها أن تقوي الجماعات الأخرى من المقهورين المتمردين.

بينت المؤرخات، مؤخرًا أنه تم تجاهل إسهامات نساء الطبقة العاملة في الثورة الأمريكية على عكس ما حدث مع زوجات القادة الأرستقراطيات، ومع مرجريت كوربين (كيت القذرة) وديبورا سامسون ومولي بيتشر، وهن نساء من الطبقة الدنيا، جمّلت أقلام المؤرخين صورهن بحيث تحولن إلى سيدات، أما النساء الفقيرات اللائي التحقن بمعسكرات الجيش في السنوات الأخيرة للحرب وحاربن وساعدن الجنود، فقد تم تصويرهن فيما بعد على أنهن عاهرات. وقد استفادت طبقة النساء الأرستقراطية من وضعها وتم منحهن حرية الكتابة والتحدث، ما جعل بعضهن يكتب بالمطالبة بحقوق النساء في الدستور.

وبالرغم من ذلك فقد أتبع جيفرسون عبارته "وُلِد كل الرجال متساوون" بعبارة تقول: "إن النساء أحكم من أن يصدعن رءوسهن بأمور السياسة". وبعد الثورة لم تمنح دساتير الولايات الجديدة المرأة الحق في التصويت، باستثناء نيو جيرسي التي علقت هذا الحق في عام **١٨٠٧**.

وشاع الحــديث عن مساواة المرأة بالرجل أثنـاء الثورة وبعدها، وتعددت الكتابات حول ذلك. وخلال الفترة ما بين الثورة الأمريكية والحرب الأهلية تغيرت عناصر كثيرة في المجتمع الأمريكي كالنمو السكاني والتوسع غربًا وتطوير النظام الصناعي، والتوسع في منح الحقوق السياسية للذكور من البيض وازدياد التعليم من أجل مواكبة الاحتياجات الاقتصادية الجديدة. وكان من المحتم أن تؤثر هذه التغيرات في وضع المرأة، وخلق نوع ما من المساواة، حيث عملت النساء في وظائف مهمة كإصدار الصحف وإدارة الحانات ودباغة الجلود ووظائف أخرى تتطلب مهارات عالية فضلاً عن احتكارهن لمهن محددة كالتوليد.

وبسبب نمط الحياة الصناعية كانت النساء يضطررن للخروج والمشاركة في صنع الحياة خارج البيت، ولكن في الوقت نفسه كان ثمة ضغط شديد لإبقائهن في البيوت حيث تسهل السيطرة عليهن. لقد خلق العالم الخارجي مخاوف وتوترات شديدة في عالم الذكور المهيمن، وجلب معه حيلاً أيديولوجية للسيطرة بحيث تحل محل المفاهيم التي أدت إلى تحرر الأسرة، والغريب أن كثيرًا من النساء قبلن بفكرة "مكان المرأة" التي تعني أن تلزم بيتها، متناسيات أن الرجال هم الذين أذاعوا هذه الفكرة وروجوا لها.

وكانت وظيفة المرأة تتمثل في بث روح المرح في البيت والحفاظ على الطابع الديني بالإضافة إلى الرعاية والتمريض والطهي وخلافه، ولا يجب عليها أن تقرأ كثيرًا، بل كان يحال بينها وبين أنواع معينة من الكتب، مثل كتاب "المجتمع في أمريكا" للكاتبة هاريت مارتينو-إحدى دعاة الإصلاح، حيث نادى أحد الصحفيين بأن تمنع النساء من قراءة هذا الكتاب؛ لأنه كفيل بأن يزعزع همتهن ويثنيهن عن تحقيق غاياتها السامية، كما أنه سوف يلقي بالعالم مرة أخرى إلى الفوضى والارتباك.

لم تكن للمرأة حق التصويت في الانتخابات، وليس لها حق التملك، وإذا عملت فأجرها يتروح ما بين الربع إلى النصف مقارنة بأجر الرجل، كما كان يتم استبعاد النساء من مهن محددة كالطب والقانون. لكن مع دخول صناعة الغزل في عام **١٧٨٩** زادت الحاجة إلى فتيات عوانس، كي تدرن ماكينات المصنع، وسرعان ما تضاعفت أعداد مصانع النسيج، وكانت النساء يمثلن ما بين **٨٠٪** إلى **٩٠٪** من عمالة هذه المصانع، وكانت أعمار معظمهن تتروح بين الخامسة عشرة والثلاثين. والجدير بالذكر أن بعض الإضرابات المبكرة في مجال الصناعة وقعت داخل مصانع النسيج، بسبب ظروف العمل القاسية والأجور المتدنية. كما بدأت في الظهور عدة كتابات تصف معاناة المرأة العاملة وتطالب بحقوقها.

ناضلت النساء من أجل نيل حقوقهن والالتحاق بالمدارس والكليات المهنية. وأصبحت النساء أكثر جرأة ووعيًا بوضعهن بعدما انخرطن في حركات الإصلاح كمناهضة العبودية وأحوال السجون وأنماط الملابس والدعوة إلى الامتناع عن شرب الخمور. وقامت النساء بأعمال عظيمة في الجمعيات المناهضة لنظام الرق، وجمعن آلاف الاحتجاجات والالتماسات وقدمنها إلى الكونغرس.

تحركت الأحداث حاملة معها حركة النساء من أجل المساواة بحيث سارت جنبًا إلى جنب مع الحركة المناهضة للرق. ففي عام **١٨٤٠** كان هناك مؤتمر في لندن للجماعة الدولية لمناهضة الرق، وبعد جدال عنيف تم التصويت باستبعاد النساء من الحضور، ثم تمت الموافقة على أنه بإمكان النساء حضور الاجتماعات ولكن من وراء حجاب.

استطاعت الناشاطات في مجال حقوق المرأة من عقد أول مؤتمر لحقوق النساء في منطقة شلالات سينيكا بنيويورك. وتوالت سلسلة من المؤتمرات في كل أرجاء البلاد بعد ذلك. وهكذا بدأت النساء في ثلاثينيات وأربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر، في مقاومة محاولات إلزامهن البيوت، وشرعن في المشاركة في كل أنواع الحركات من أجل المسجونين والمجانين والعبيد السود، وأيضًا من أجل كل النساء، ووسط هذه الحركات واعتمادًا على قوة الحكومة وسلطة الأموال، تفجرت الحاجة إلى المزيد من الأراضي وتولد الحافز على التوسع.

الفصل السابع

ما نما عشب أو جرى ماء

إذا كانت النســاء من بين كل الجماعــات التابعة في مجتمع ذكوري أبيض، هن الأقرب للوطن، فقد كان الهنود الحمر هم الأجانب من وجهة نظر ذلك المجتمع. ولما كانت النساء الأقرب ويمثلن احتياجًا ضروريًا، فقد كان يتم التعامل معهن بأسلوب الوصاية أكثر منه بأسلوب القوة والقسوة. أما الهندي الذي لم يكن يمثل احتياجًا بل عقبة، فلم يكن يلق سوى القوة والقسوة. فقد أدت عملية إزاحة الهنود، وهو الاسم المهذب لإبادتهم، إلى تمهيد الطريق أمام الاحتلال الأبيض فيما بين سلسلة أبلانشيان وبين المسيسيبي، حيث أخليت الأرض من أجل الزراعة والتوسع والهجرة وبناء المدن الجديدة وتشييد إمبراطورية قارية تمتد إلى المحيط الهادي. وليس بمستطاع تقدير ما تكلفه ذلك من أرواح البشر على وجه الدقة. أما عن المعاناة التي سببها فهو ما يصعب تقديره. ولا تكاد كتب التاريخ التي يدرسها التلاميذ تتوقف عند هذا الموضوع، بل تمر عليه بشكل عابر، غير أن الإحصائيات لديها الخبر اليقين.

ففي عام **١٧٩٠** كان عدد الأمريكيين ثلاثة ملايين وتسعمائة ألف، وفي عام **١٨٣٠** وصل عددهم **١٣** مليون. أما الهنود فقد كان مائة وعشرون ألف منهم يعيشون شرق المسيسيبي عام **١٨٢٠** وبحلول **١٨٤٤** لم يبق منهم سوى أقل من **٣٠** ألفًا، حيث أجبر معظمهم على الهجرة باتجاه الغرب، لكن كلمة "أجبر" لا تصور ما حدث بالفعل.

فبعد الثورة الأمريكية ومحـاربة الهنود خلالهــا فــي صفــوف البريطانيين، ومع رحيل البريطانيين واصل الهنود قتالهم. كانت الحرب قد أوهنت قوات واشنطن فحاول استرضاء الهنود حيث صرح وزير الشؤون الحربية هنري نوكس بأن الهنود يمتلكون الأرض بوصفهم المحتلين السابقين. وأعلن توماس جيفرسون وزير الخارجية عام **١٧٩١** بأنه لا يحق التدخل في شؤون الهنود ما داموا يعيشون داخل حدود الدولة، وأنه على الحكومة أن تمنع المستوطنين البيض من انتهاك حقوق الهنود.

مع وصول جيفرسون لرئاسة البلاد عام **١٨٠٠** ومع استمرار تحرك البيض باتجاه الغرب، ألزم جيفرسون الحكومة الفيدرالية بإزاحة الهنود من جورجيا. وتصاعد النشاط العدواني ضد الهنود في إنديانا. اقترح جيفرسون على الكونجرس تشجيع الهنود على الاستقرار على مساحات صغيرة من الأرض وزراعتها، كما شجعهم على التجارة مع البيض، وأن تقدم لهم قروض يردونها في صورة تنازل عن قطع الأرض التي يزرعونها. كان ذلك يعني تشجيع الهنود على التخلي عن ممارسة الصيد. وتشجيعهم على بناء المنازل والتجارة فيها فيما بينهم بحيث يؤدي ذلك إلى ممارسة الزراعة والصناعة والحضارة.

كانت إزاحة الهنــود ضرورية لفتح الأراضي الشــاسعة أمام الاقتصاد الرأسمالي الحديث، ولم يكن ذلك ممكنًا بدون الأرض. وبعد الثورة قام الأثرياء بشراء مساحات كبيرة من الأراضي، حتى أراضي الهنود -قبيلة شيكاساو- في كارولاينا الشمالية رغم أنهم حاربوا في صفوف الثورة، ورغم وجود اتفاقية مع الهنود لضمان عدم التعدي على أرضهم، لكن انتهى الأمر ببيعها.

حاول تيكومسيه أحد زعماء هنود شوني توحيد صفوف الهنود لمواجهة الغزو الأبيض، لكن هنود الكريك الذين يشغلون معظم أراضي جورجيا وآلاباما والمسيسيبي انقسموا على أنفسهم، فرغب بعضهم في تبني حضارة الرجل الأبيض من أجل العيش في سلام، بينما تمسك الآخرون بأرضهم وثقافاتهم وكانوا يعرفون باسم العصى الحمراء. وقد حدثت بينهم وبين البيض حروب عديدة كان معظم ضحاياها من الهنود، والذين تم أخذ أرضهم. حتى أراضي الهنود الذين شاركوا في الحرب ضد بني جنسهم تم أخذها.

وبقيام القــائد الأمريكي جاكســون بقهر هنود الكــريك ضمــن الازدهــار للجنوب الغربي، واتسعت مزارع القطن.

وقد بدت اتفاقية **١٨١٤** التي وقعها جاكسون مع الهنود شيئًا جديدًا ومهمًّا، فقد منحت الهنود حق الملكية الفردية للأرض، وبذلك تنازع الهندي مع أخيه وانكسرت الملكية الجماعية، خاصة أن الحكومة قد رشت البعض بالأرض وتركت البعض الآخر، مما زرع روح التنافس والتواطؤ التي ميزت الرأسمالية الغربية، وكانت هذه الفكرة متسقة كل الاتساق مع فكرة جيفرسون القديمة عن كيفية التعامل مع الهنود وذلك عن طريق إدخالهم في الحضارة.

توالت عمليات الاستيلاء على أراضي الهنود، وواصل الهنود تراجعهم وتوقيع اتفاقيات جديدة، وكان جاكسون يشجع البيض على دخول الأراضي الهندية، ثم يقول للهنود بأن الحكومة لا تستطيع إزاحة هؤلاء، وأنه من الأفضل لهم التنازل عن الأرض وإلا أزيحوا منها. وكانت كلمته المشهورة التي وعد خلالها الهنود بأنه في حالة خروجهم من ولايتي المسيسيبي وآلاباما واستقرارهم في أراضي أخرى بأنهم سيملكونها وأنه سيصير صديقًا لهم قائلاً لهم: سوف تبقى هذه الأرض لكم، طالما نما عشب أو جرى ماء. وسوف تتذكر أجيال عديدة من الهنود هذه العبارة بمرارة شديدة.

وضعت هذه الاتفاقيات وعمليات سلب الأراضي الأساس لمملكة القطن والمزارع التي كانت تقوم على العبيد.

كانت قـرى هنود سيمنيول التي تقـع بالقرب من فلوريدا التي كالنت تملكها إسبانيا، كانت تسبب تلك القرى استفزازًا للمستوطنين البيض، فقد لجأ إلى تلك القرى العبيد السود الهاربون، وكان بعض الهنود يشترون العبيد أو يقومون بأسرهم، لكن طريقتهم في معاملة الرقيق كانت أقرب إلى الرق الإفريقي منه إلى رق المزارع، فقد كان للعبيد قراهم الخاصة بهم في أغلب الأحوال، وكثيرًا ما كان أبناؤهم يحصلون على الحرية، كما كان هناك زواج مختلط بين الهنود والسود، وكانت هناك قرى يعيش فيها السود مع الهنود، وقد أثار ذلك حفيظة أهل الجنوب الذين رأوا ذلك فتنة لعبيدهم الذين ينشدون الحرية.

بدأ جاكسون غاراته على فلوريد بزعم أنها ملاذ للعبيد الهاربين، **وقال جاكسون:** إن فلوريدا حيوية فيما يتعلق بالدفاع عن الولايات المتحدة، وكان ذلك بمثابة مقدمة تقليدية حديثة لحرب هدفها الغزو، ومن ثم بدأت حرب سمينيول التي وقعت عام **١٨١٨** وانتهت بضم الولايات المتحدة لفلوريدا. تظهر هذه العملية في الكتب الدراسية تحت اسم مهذب وهو شراء فلوريدا، لكن الحقيقة أن فلوريدا لم تشتر، بل أتت عن طريق الحملة العسكرية وحرق قرى الهنود، وحصار الحصون الإسبانية، حتى اقتنعت إسبانيا بأن تبيع فلوريدا.

الملاحظ أن أبرز الكتب التي تتناول الحقبة الجاكسونية والتي كتبها مؤرخون محترمون لا تذكر شيئًا عن سياسة جاكسون في التعامل مع الهنود، بل تتحدث كثيرًا عن نظم التعريفة والبنوك والأحزاب والبلاغة السياسية، وتصور تلك الكتب جاكسون على أنه المحارب ورجل الشعب، والرائد والديمقراطي، وليس جاكسون مقتني العبيد ومالك الأراضي وجلاد الجنود المتذمرين ومبيد الهنود. وليس هذا من قبيل الرؤية المراجعة، أي التفكير في الماضي بطريقة مختلفة. فبعد انتخاب جاكسون رئيسًا للبلاد في **١٨٢٨** خرج مشروع إزاحة الهنود أمام الكزنجرس وأطلق عليه "الإجراء الرئيسي لإدارة جاكسون، وأعظم قضية نظر فيها الكونجرس على مدار تاريخه" باستثناء أمور الحرب والسلام.

مع تولي جاكسون الرئاسة تم اكتشاف الذهب في أرض قبيلة الشيروكي بولاية جورجيا، فقام آلاف البيض بغزو المنطقة وتحطيم ممتلكات الهنود. أمر جاكسون القوات الفيدرالية بإزاحة المستوطنين، لكنه أمر الهنود والبيض على السواء بالتوقف عن استخراج الذهب، ثم أزاح القوات وسمح بعودة البيض، وقال: إنه لا يستطيع التدخل في سلطة ولاية جورجيا، استولى الغزاة البيض على الأرض والمخازن وأجبروا الهنود على توقيع عقود لهم، وباعوا الخمر للهنود كي يوهنوا مقاومتهم، وقتلوا الطيور والحيوانات التي يعتمد عليها الهنود في غذائهم.

لقد أدى نقص الطعام وتعاطي الخمور والهجمات العسكرية إلى عملية تفكك قبلي، وتزايد عنف الهنود بعضهم ضد بعض. كما أسفرت المعاهدات التي وقعت تحت الضغط والخداع عن تفتت أراضي الهنود إلى أملاك فردية صغيرة.

يذكر فان إيفــري في كتابه أنه في عشرينيات القــرن التاسع عشر، قبل أن يتولى جاكسون رئاسة الولايات المتحدة، كان الهنود الجنوبيون والبيض، قد استقر بهم العيش في أعقاب حرب الكريك، وتوثقت بينهم العلاقة، وكانوا يعيشون في سلام، وبدا الطرفان في مواجهة مشاكلهم العامة، وتطورت الصداقة وأصبح شيئًا طبيعيًّا أن يزور بعضهم بعضًا وفي هذا المناخ خرج العديدون من الأشخاص الذين بقوا أصدقاء للهنود مدى الحياة. يؤكد إيفري أن القوة التي أدت إلى إزالة الهنود لم تأت من فقراء البيض الذين كانوا جيرانًا للهنود، ولكنها أتت من التصنيع والتجارة والزيادة السكانية وزيادة مد الطرق الحديدية والمدن، كما أتت من ارتفاع قيمة الأرض وجشع رجال الأعمال.

نظرًا للظروف التي تعرض لها هنود الشيروكي وبعد أن أصبحوا محاصرين بالمستوطنين البيض ومجتمعهم، بدأ الهنود في تقليد المجتمع الأبيض، بل أصبح كثير منهم يقتنون العبيد، وبدأوا يتشبهون بالحضارة التي عبر عنها بالمجتمع الأبيض، وبذلوا جهودًا مذهلة لكسب مودة الأمريكيين. والأكثر من ذلك أنهم رحبوا بالمسيحية والمبشرين بها، بيد أن أرض الهنود، لا الهنود أنفسهم، هي التي كانت تروق في عيون الأمريكيين. لكنه كان يوجد بعض المدافعين عن حقوق الهنود، ولعل أفصحهم هو السيناتور تيودور فريلنجهايزن الذي عارض قانون الإزاحة. وكان الشمال بصفة عامة معارضًا لقانون الإزاحة، أما الجنوب فكان مؤيدًا لها.

الفصل الثامن

"نحن لا نأخذ شيئًا عن طريق الغزو .. والحمد لله"

كانت المكســيك تقع جنـوب غرب الأراضــي الأمريكية، وكانت قد حصلت على استقلالها بعد حرب كبيرة ضد إسبانيا عام **١٨٢١**، كما أنها كانت بلدًا كبيرًا يضم تكساس وما هو معروف الآن بنيو مكسيكو وأوتاه ونيفادا وأريزونا وكاليفورنيا بالإضافة إلى جزء من كولورادو. وبعد حركة تحريضية ومساعدة من الولايات المتحدة انفصلت تكساس عن المكسيك عام **١٨٣٦** وأعلنت نفسها تحت اسم "نجم الجمهورية الوحيد" وفي عام **١٨٤٥** قبل الكونجرس انضمام تكساس إلى اتحاد الولايات ومن ثم أصبحت ولاية أمريكية.

كـان رئيس الولايات المتحدة في ذلك هــو جيمس بوك الديمقراطي التوسعي والذي كان أحد أهدافه ضم كاليفورنيا. وأصدر أوامره إلى الجنرال تيلور بتحريك قواته نحو نهر نيو جراند تحديًا واستفزازًا للمكسيكيين. كان كل ما يحتاجه الأمر لبدء الحرب هو حادثة عسكرية تكون ذريعة لشن الحرب التي أرادها الرئيس بوك. وجاءت هذه الذريعة مع اختفاء أحد الضباط والعثور على جثمانه بعد ذلك وجمجمته محطمة. وبالطبع افترض أنه لا بد أن يكون قد قتل على أيدي عصابات مكسيكية. وفي اليوم التالي هاجم مكسيكيون مجموعة من جنزود تايلور فقتلوا بعضهم وأسروا البعض. أرسل تيلور إلى الرئيس قائلاً: من الممكن أن تعتبر أن الحرب قد بدأت الآن.

استدعى الرئيس بوك إدارته ليبلغهم عن ضحايا الهجوم المكسيكي، ووافقوا جميعًا على أن يقوم الرئيس بإعلان الحرب.

كــان بوك يتحدث عن إرساله قـوات أمريكية إلى نهر ريو جراند بوصفه إجراء دفاعيًّا ضروريًّا، لكن العكس هو الصحيح، لقد أشعل الرئيس الحرب وذلك بإرساله جنودًا أمريكيين إلى أراض متنازع عليها، وساكنوها والمسيطرون عليها تاريخيًّا هم المكسيكيون.

اندفع الكونجرس في موافقته على شأن الحرب. وكان حزب المحافظين كما هو مفترض معارضًا للحرب، لكنه لم يكن معارضًا لمبدأ التوسع، إذ كان أفراد هذا الحزب يتمنون ضم كاليفورنيا لكن دون حرب. كان مبدؤهم توسعيًّا تجاريًّا من أجل تأمين جبهة البلاد من ناحية المحيط الهادي. لكنهم لم يكونوا معارضين للعمل العسكري بشكل حاسم تمنعهم من تجنيد المتطوعين وإرسال الأموال من أجل إتمام العملية، وكل ما في الأمر أنهم لم يريدوا المخاطرة باتهامهم بتعريض الجنود الأمريكيين للخطر بحرمانهم من الموارد اللازمة للحرب، لذا كانت النتيجة انضمامهم إلى الديمقراطيين في التصويت لصالح الحرب.

صوتت حفنة من رجـال الكــونجرس المناهضين للــرق ضد إجراءات الحرب، إذ رأت فيها وسيلة لتوسيع الأراضي الجنوبية التي يعمل فيها العبيد.

بعد صدور قرار الكونجرس في مايو **١٨٤٦**، قامت مسيرات تأييد للحرب في ولايات عدة، وتدافع آلاف من أجل التطوع في صفوف الجيش. وكتب الشاعر والت ويتمان في إحدى الصحف يقول: "نعم، لا بد من تأديب المكسيك. ولتحمل أسلحتنا الآن بروح تعلم العالم بأن أمريكا، في الوقت الذي لا تسعى فيه إلى النزاع، قادرة على أن تردع وأن تتوسع على السواء".

واقترنت هــذه الدرجة من العــدوانية بفكرة مــؤداها أن الولايات المتحـدة تمنح بركات الحرية والديمقراطية إلى مزيد مـن الناس، وكـانت هـذه الفكرة تختلـط بأفكـار

التفوق العرقي بالتطلع إلى الاستيلاء على الأراضي الجميلة لنيومكسيكو وكاليفورنيا، وكذلك بأفكار المؤسسات التجارية عبر المحيط الهادي.

على الجانب الآخر قالت الرابطة الأمريكية المناهضة للرق: إن الحرب لم تقم إلا تحقيقًا للغرض البغيض وهو التوسع الأمريكي في تجارة الرقيق في الأراضي الشاسعة للمكسيك. أما الكنائس فكان موقفها من الحرب أحد اثنين، إما الإدانة الصريحة أو الصمت، وبصفة عامة لن تهاجم الحرب بشكل واضح سوى الكنائس الاتحادية والمستقلة. الكاهن تيودور باركر أحد رعاة الكنائس الاتحادية في بوسطن، جمع موقفه بين النقد الفصيح للحرب واحتقار الشعب المكسيكي الذي أطلق عليه "الشعب التعيس في أصوله وتاريخه وصفاته". **كان الكاهن يقول:** إن على ذلك الشعب أن يفسح الطريق لأبناء الجنس الأبيض كما فعل الهنود. كان الكاهن يؤيد التوسع لكن ليس عن طريق الحرب، بل عن طريق قوة الأفكار وضغط التجارة. حث باركر الناس على المقاومة النشطة للحرب عام **١٨٤٧**.

مع استمرار الحرب، اشتدت المعارضة وزادت. لكن أين كان الرأي الشعبي من تلك الحرب؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال؛ فبعد موجة الاندفاع الأولى، قلت أعداد المنضمين للجيش للمشاركة في الحرب، وأظهرت انتخابات **١٨٤٦** تزايدًا في سخط الناس على الرئيس بوك، ولكن من يستطيع يجزم أن ذلك كان بسبب الحرب؟ من يتصفح صحف -غالبية الصحف- تلك الفترة يجدها تدعو للحرب وتأيدها بكل قوة، لكن هل ترى كانت الصحف تسجل مشاعر الرأي العام أم أنها كانت تخلق مشاعر محددة داخل الرأي العام؟

من المستحيل معرفة مدى التأييد الشعبي للحرب المكسيكية، لكن ثمة دليل على أن كثيرين من الطبقة العاملة عارضوها. ونظم الكثير من العمال في نيو إنجلاند ونيويورك وبوسطن ولويل مظاهرات ضد ضم تكساس. وعندما بدأت الحرب المكسيكية



دعت جماعة من العمال إلى اجتماع لمعارضة الحرب، حضره عدد كبير من العمال الأيرلنديين. ووصف الاجتماع الحرب بأنها مؤمراة نظمها تجار العبيد، وطالب المجتمعون بانسحاب القوات الأمريكية من الأراضي المتنازع عليها. وفي الوقت نفسه احتجت بعض الصحف على الحرب منذ بدايتها.

شهــدت الحرب العديد مــن الفظائع، وراح ضحــيتها أعــداد ضخمة من الجانبين. وفي نهاية المطاف استسلمت المكسيك، وخرجت أصوات تطالب بضم المكسيك كلها. لكن الولايات المتحدة لم تحصل إلا على نصف المكسيك بعد توقيع معاهدة "جوادالوب هيدالجو" والتي وقع عليها الجانبان في فبراير **١٨٤٨**. تنازلت المكسيك عن نيو مكسيكو وكاليفورنيا مقابل خمسة عشر مليونا من الدولارات، وهو الأمر الذي جعل مجلة "ويج انتيليجنسير" المعبرة عن حزب الجمهوريين تقول: "نحن لا نأخذ شيئًا عن طريق الغزو .. والحمد لله".

الفصل التاسع

عبودية دون إذعان وتحرير دون حرية

كان دعم الولايات المتحدة لنظام الرق يقوم على مدى النفع الكبير لهذا النظام، فقد وصل معدل إنتاج الجنوب من القطن عام **١٨٦٠** إلى مليون طن. وفي الفترة نفسها زاد عدد الرقيق من خمسمائة ألف إلى أربعة ملايين، لكن مؤمرات العبيد وحركات تمردهم عجلت بإنشاء نظام للسيطرة على العبيد في الولايات الجنوبية، تؤيده القوانين والمحاكم والقوات المسلحة والتحامل العنصري لقادة الأمة السياسيين.

لم يكـن ليقوض هذا النظام الحصين سـوى تمـرد شامــل للعبيــد أو حرب شاملة. فلو كان تمردًا، فربما يخرج عن الحدود المرسومة له ويتحول بغضبه إلى ما وراء نظام الرق، أي نظام الإثراء الرأسمالي الناجح. ولو كانت حربًا، فسيتولى من دبروها ترتيب عواقبها، ومن ثم فإن إبراهام لنكولن، وليس جون براون، هو الذي حرر العبيد. في عام **١٨٥٩** شنق جون براون، بمشاركة فيدرالية، لأنه حاول أن يقوم عن طريق عنف ضيق النطاق، بتحقيق ما سيقوم لنكولن بتحقيقه عن طريق عنف واسع النطاق بعد سنوات عديدة، ونعني بذلك إنهاء العبودية.

وبإلغاء العبودية بقرار حكومي، حيث دفعت الحكومة دفعًا لفعل ذلك من قبل السود أحرارًا وعبيدًا والبيض المناهضين للعبودية، صار بإمكان الحكومة أن تضع حدودًا لتحرير العبيد. إن تحرير العبيد عندما يبدأ من القمة، فإنه يعني أنه سوف يسري إلى الحد الذي تسمح به مصالح الجماعات المهيمنة. ولو تجاوز الحدود المرسومة له، مدفوعة بقوة كقوة الحرب أو أدبيات حملة عسكرية، يظل بإمكان الجماعات المهيمنة إلجامه ورده إلى مكان آمن.

عانى العبيد من العمل في المزارع، وتعرضوا لأقسى أنواع التعذيب والمعاملة السيئة. وقاموا بحركات تمرد وثورات عديدة.

بعض الثورات قتل في مهدها نتيجة اكتشافها، والبعض الآخر نجح في التحرك والقيام بعمليات حرق للمزارع وقتل بعض السادة، قبل أن تتمكن القوات النظامية من سحقهم وقتل قادة التمرد.

كما انتهج العبيد المقاومة السلبية، عن طريق التكاسل وعدم إتمام الأعمال المطلوبة منهم. وقد شهدت بعض تمردات العبيد تلقيهم مساعدة من الفقراء البيض، ورغم عدم كثرة تلك الحالات لكنها كافية بدرجة توضح الحاجة إلى التكاتف ضد الآخر. وفي المقابل قام السود بمساعدة ذوي الحاجة من البيض، فقد تم جلد امرأة سوداء من قبل سيدها لأنها قدمت طعامًا إلى جارها الأبيض الفقير.

إن الحاجة إلى السيطرة على العبيد أدت إلى اختراع وسيلة ذكية تتمثل في استئجار فقراء البيض، كي يعملوا مشرفين على العبيد. وبالتالي يقومون مقام الحواجز أو المصدات للكره الأسود.

كما كان الدين وسيلة للسيطرة على العبيد، إذ يقدم أحد الكتب نصائح للمشرفين على العبيد: "ولسوف تجد أن تخصيص ساعة من صباح كل سبت لتوجيههم الديني والأخلاقي سيكون عونًا عظيمًا لك تكسب به رضا الزنوج".

توصلت جماعة الزنوج إلى استراتيجية مفادها الصبر والقبول بما لا يملكون منه فكاكًا، والحفاظ على حياتهم وصحتهم. إنها استراتيجية البقاء، التي كنظيرتها الإفريقية، تقول: نعم للحياة في هذا العالم.

بينما انتظر العبيد في الجنوب، فإن السود الأحرار في الشمال والذين وصل عددهم **٢٠٠** ألف عام **١٨٥٠**، قاموا بالتحرض من أجل إلغاء نظام الرق. وظهر في تلك الفترة ديفيد ووكر الذي كان ابن عبد لكنه ولد حرًّا. وكان له كتاب يسمى "مناشدة ووكر" أشعل عليه غضب مالكي العبيد في الجنوب، فرصدوا مكافأة **١٠** آلاف دولار مقابل تسليمه حيًّا أو ألف مقابل قتله.

كان ووكر يقول في كتابه: إن التاريخ لم يشهد نظامًا للرق، بما في ذلك ما شهده بنو إسرائيل في مصر، أسوأ من استعباد الرجل الأسود في أمريكا. وقال: إن المصريين لم يلحقوا إهانة ببني إسرائيل من قبيل اتهامهم بأنهم ليسوا بشرًا.

دعــا ووكر السود إلى القتال من أجـل حريتهــم وكتب قائلاً: لا حق لهم في استعبادنا إلا كحقنا في استعبادهم. وقد عثر على ووكر عام **١٨٣٠** ميتًا قرب متجره.

كان قانون العبد الهارب الذي صدر عام **١٨٥٠** امتيازًا للولايات الجنوبية في مقابل قبولهم بأن تكون الأراضي التي ضمت بعد الحرب المكسيكية إلى الاتحاد كولايات خالية من العبيد. وقد سهل هذا القانون على مالكي العبيد إلقاء القبض على العبيد السابقين أو على السود والادعاء بأنهم عبيد هاربون. لم يسكت السود في الشمال ونظموا مقاومة ضد القانون الذي صدر. كان أحد هؤلاء المعارضون ج. و. لوجوين وهو ابن لامرأة سوداء حملت من مالكها الأبيض. **قال لوجوين في خطاباته:** "آن الأوان كي تتحول نبرات الإذعان إلى نبرات التحدي. لقد جاءتني حريتي من السماء، وجاءني معها الأمر بالدفاع عنها. إنني لا أحترم هذا القانون، ولا أخشاه، ولن أطيعه. لن أعيش عبدًا، وإذا تم اللجوء إلى القوة لاستعبادي ثانية، فسوف أتخذ استعدادات للتعامل مع هذه الأزمة كما يليق برجل".

كما شن العديد من العبيد المحررين هجومًا حادًّا ضد القانون، فقال فريدريك دوجلاس: إن العار المرتبط بنظام الرق لم يقتصر فقط على الجنوب، وإن الأمة كلها متورطة في ذلك العار.

مع تزايد التوتــر شمالاً وجنــوبًا، أصبح الســود أكثر راديكالية وتسليحًا. وقال دوجلاس: ليس هناك تقدم ما لم يكن هناك نضال، والذين يتمنون الحرية في الوقت الذي يستنكرون فيه الثورة والغضب، كالذين يتمنون المحصول دون أن يحرثوا الأرض، أو يتمنون المطر بلا برق أو رعد.

كان ثمــة اختلافات تكتيكية بين دوجــلاس ووليم لويد جاريسون رئــيس تحرير مجلة "ذا ليبرايتور" والداعي لإلغاء الرق، وهي اختلافات بين المناهضين لنظام الرق من البيض من ناحية والسود من ناحية أخرى، فقد كان السود أكثر رغبة في الاشتراك في التمرد المسلح، لكنهم -أيضًا- كانوا على استعداد لاستغلال الحيل السياسية القائمة مثل صناديق الاقتراع والدستور أو أي شيء من شأنه تدعيم قضيتهم. لم ينطلق السود من مبادئ أخلاقية مطلقة كما كان حال المناهضين للرق من البيض. كان السود يعرفون أن الضغط الأخلاقي وحده لا يكفي، بل لا بد من اللجوء إلى كل التكتيكات بداية من الانتخابات وحتى التمرد والثورة.

قام المناهضون للرق من البيض بأعمال رائدة وشجاعة، لكن نظراءهم السود كانوا هم العمود الفقري لحركة مناهضة الرق. وكان على السود دائمًا أن يقاوموا العنصرية الكامنة في العقل الباطن للمناهضين للرق من البيض، كما كان عليهم أن يصروا على استقلال صوتهم. وعبر دوجلاس عن ذلك قائلاً: إنها معركتنا بكل تأكيد، ولا يستطيع شخص آخر أن يخوضها نيابة عنا، ولابد أن تتغير علاقاتنا مع الحركة المناهضة للرق، وعلينا أن نستبدل باعتمادنا عليها قيادتنا لها.

بعد تمــرد عنيف قام به أحد العبيد -نات تيرنر- والذي قمعته فرجينيا بكل وحشية، أصبح النظام الأمني داخل الجنوب أكثر تشددًا. وكان لابد أن يأتي شخص من خارج دائرة السود الذين بدا وكأنهم فقدوا الأمل في القيام بثورة أو تمرد جديد. جاء رجل أبيض يتصف بشجاعة وعزم لا يعرفان التراجع، وبلغت شجاعته حد القيام بحصار ترسانة الأسلحة الفيدرالية في هاربرز فيري بفرجينيا ثم الانطلاق بثورة للعبيد في الجنوب. كان هذا هو جون براون. التقى فريدريك دوجلاس بجون براون، وناقشه في خطته معارضًا إياه في فرص نجاح حركته التمردية، لكنه حمل إعجابًا شديدًا للرجل المريض الذي بلغ الستين من عمره. وحدث ما توقعه دوجلاس، وفشلت خطة براون إذ قامت القوات العسكرية المحلية بعد انضمام مائة من أفراد البحرية بمهاجمة المتمردين، وتم القبض على براون وإعدامه.

وفـي كلمته الأخيرة قبل إعـــدامه كتب براون قائلاً: "يملؤني اليقين بأن الجرائم التي ارتكبها هذا البلد المذنب لن يطهرها سوى الدم".

إن حكومة كهذه لم تكن لتقبل إنهاء نظام الرق عن طريق التمرد، بل عن طريق شروط يمليها البيض وفي الوقت الذي تحتمه الاحتياجات السياسية والاقتصادية لنخبة الشمال. ولقد قام إبراهام لنكولن بذلك عندما جمع باقتدار بين احتياجات العمل والطموح السياسي للحزب الجمهوري الجديد وبلاغة المذهب الإنساني. فلم يكن لينكولن ليضع مسألة إلغاء الرق على قمة أولوياته، بل وضعها بالقرب من قمة أولوياته بدرجة تكفي لدفعها مؤقتًا إلى القمة في حالة ضغط الداعين إلى إلغاء الرق أو في حالة تحقيق مكاسب سياسية ملموسة.

استطاع لينكولن بمهارة أن يزاوج بين مصالح الأثرياء ومصالح السود في لحظة تاريخية التقت عندها هذه المصالح، كما استطاع أن يربط هذه المصالح بمصلحة قطاع متنام من الأمريكيين البيض وهو قطاع يشمل الواعدين الطامحين اقتصاديًّا والناشطين سياسيًّا من أبناء الطبقة الوسطى.

كـان باستطاعة لينكولن أن يجـادل بحجـــة قـوية وعاطفة جياشة ضد العبودية وذلك على أساس أخلاقي، لكنه عند التنفيذ كان يتصرف بالحذر الذي تمليه عليه الظروف السياسية. كان يؤمن أن مؤسسة الرق قامت على الظلم، ولكن نشر الأفكار والمذاهب التي تتعلق بإلغائها يضر بها ولا يقلل من شرها.

لما اقتـــرح لينكولن كأحد رجال الكـــونجرس عام **١٨٤٩** إصدار قرار بإلغـــاء العبودية في حي كولومبيا، ضمن اقتراحه جزءًا يقضي بأن تقوم سلطات الحي بالقبض على أي عبد فار وإرجاعه للولاية التي هرب منها. الأمر الذي جعل بعض المناهضين للرق يصفونه بـ "صائد العبيد". لقد عارض لينكولن العبودية، لكنه لم يستطع أن يرى السود مساوين للبيض، وكان من بين أفكاره الرئيسية والثابتة في نظرته لمشكلة العبودية أن يقوم بتحرير العبيد وإرجاعهم إلى إفريقيا.

فــي حملته الانتخابية لمجلس الشيــوخ عام **١٨٥٨**، كان لينكــولن يتلون في أحاديثه وفقًا لآراء من يتحدث معهم. فتارة ينادي بأن البيض والسود شعب واحد، وتارة ينادي بأنهم عرق أدنى من البيض.

كان وراء انسحاب الجنوب من الاتحاد، بعد انتخاب لينكولن رئيسًا للبلاد في خريف **١٨٦٠** كمرشح للحزب الجمهوري، سلسلة طويلة من الصراعات بين الشمال والجنوب، بالأصح كان صراع بين نخبة الشمال ونخبة الجنوب.

كـانت النخبة الشمالية ترغب في التوســـع الاقتصادي الذي يتمثل في توفير الأراضي والعمل الحر والسوق الحرة وتعريفة عالية لحماية أصحاب المصانع، ويتمثل كذلك في إنشاء بنك للولايات المتحدة. لكن الأربـاح التي يجلبها نظام الرق في الجنوب كان يعارض ذلك، ورأت النخبة الجنوبية أن لينكولن والجمهوريين لا يشغلهم سوى استمرار نمط حياتهم بما فيه من متع ورفاهية. ومن ثم فعند انتخاب لينكولن قامت سبع ولايات جنوبية بالانفصال عن الاتحاد. وبدأ لينكولن الحرب محاولاً استعادة القاعدة الفيدرالية في فورت سومتر بكارولاينا الجنوبية، فاتفصلت أربع ولايات أخرى، فتم تشكيل الكونفدرالية واندلعت الحرب الأهلية.

في خطابه للجنوب في مارس **١٨٦١** حاول لينكولن استرضاء الولايات الجنوبية المنفصلة في خطاب له، حيث قال بأنه ليس لديه هدف مباشر أو غير مباشر للتدخل في مؤسسة الرق. لكن مع ازدياد مرارة الحرب وتزايد ضحاياها، هدد نقد الداعين لإلغاء نظام الرق بحل التحالف المهترئ وراء لينكولن، الأمر الذي جعله يبدأ في معاداة نظام الرق.

كانت العنصــرية مترسخة في الشمال رسوخ العبودية في الجنوب، وكان على الحرب أن تهز أركانهما. كان السود في نيويورك ليس لهم حق الانتخاب إلا في حالة تملك الفرد **٢٥٠** دولارًا. وتم الاقتراع على اقتراح بإلغاء ذلك الشرط وكانت النتيجة رفض هذا الاقتراح.

مع تواصل الحرب زادت أعداد المناهضين للرق. وفي يوليو **١٨٦٢** أصدر الكونجرس قانون المصادرة الذي مكّن العبيد الذين يناهض سادتهم اتحاد الولايات من أن يكونوا أحرارًا، غير أن هذا القانون لم يدخل حيز التنفيذ وتجاهله لينكولن.

لما قام لينكولن في سبتمبر **١٨٦٢** بإصدار الإعلان التمهيدي لتحرير العبيد، كان ذلك خطوة عسكرية، حيث منح لينكولن الجنوب أربعة أشهر لإنهاء التمرد، مهددًا بتحرير عبيد سادة الجنوب إذا استمروا في تمردهم، وواعدًا بعد المساس بنظام الرق في الولايات التي تعلن استسلامها للشمال. ومن ثم فعندما صدر إعلان تحرير العبيد الأول في يناير **١٨٦٣**، كان ذلك يعني تحرير العبيد في تلك المناطق التي كانت في حالة حرب مع الاتحاد، بينما لم يذكر شيئًا عن العبيد في المناطق الأخرى التي تساند الاتحاد.

على الرغم من أن إعلان تحرير العبيد كان محدودًا، فقد شحذ من عزم القوى المناهضة للعبودية، وتم جمع **٤٠٠** ألف توقيع يطالب المجالس التشريعية بإنهاء العبودية. وفي أبريل **١٨٦٤** تبنى مجلس الشيوخ المادة الثالثة عشرة من الدستور، وأعلن إنهاء العبودية في البلاد، وفي يناير **١٨٦٥** تبعه مجلس النواب.

مع إعلان تحرير العبيد صار جيش الاتحاد مفتوحًا أمام السود، وكلما زاد عدد السود في دخول الحرب، بدت الحرب وكأنها قامت من أجل تحريرهم، وكلما زادت تضحيات البيض، زادت درجة السخط بينهم، خاصة الفقراء، الذين جندوا بينما تم السماح للأثرياء بالإعفاء من الحرب مقابل **٢٠٠** دولار. تزايد سخط البيض على السود وقامت بعض المظاهرات والانتفاضات ضدهم في المدن الشمالية، وهاجم البيض عددًا من السود، ورفع بعضهم في ديترويت شعار: "إذا كان علينا أن نقتل في الحرب في سبيل الزنوج، فسوف نقوم بقتل كل فرد منهم في المدينة".

كانت الحرب الأهلية من أكثر الحروب دموية في تاريخ البشرية حتى ذلك الوقت، إذ مات فيها من الجانبين **٦٠٠** ألف شخص، من إجمالي عدد سكان يبلغ **٣٠** مليونًا.

لعبت النساء السود دورًا مهمًّا في الحرب، لاسيما قبل نهايتها. وتحركت النساء مع الكتائب الملونة التي تشكلت، حيث كن يقمن بمساعدة أزواجهن، متحملات المصاعب الشديدة التي صاحبت الرحلات العسكرية.

ترددت أقوال بأن قبول السود بنظام الرق حقيقة تأكدت أثناء الحرب الأهلية, فعندما سنحت الفرصة بالهرب، رفض معظم العبيد الهرب وبقوا في المزارع. لقد هرب في حقيقة الأمر، نصف مليون من العبيد، أي: هرب عبد من بين كل خمسة، وهي نسبة عالية إذا اعتبرنا أن كان ثمة صعوبة كبيرة أمام العبد تتمثل في أنه لا يعرف إلى أين هو ذاهب وكيف سيعيش. وتبرز كتابات اليوميات الخاصة بأصحاب المزارع في تلك الفترة حالات فرار مكثفة للعبيد.

الجدير بالذكـــر أن معظم العبيد لم يستسلموا ولم يثوروا، واستمروا في عملهم انتظارًا لما تسفر عنه الأحداث. ولما حانت الفرصة، غادروا عملهم وانضموا في غالبيتهم إلى الجيش الاتحادي، وبلغ عدد المنضمين للجيش حوالي **٢٠٠** ألف فرد، قتل منهم حوالي **٣٨** ألف. يقول المؤرخ جيمس ماكفرسون: "لم يكن الشمال ليستطيع أن ينتصر في الحرب بهذه السرعة، وربما لم يكن لينتصر فيها، لولا مساعدة السود".

ما حدث للسود في الجيش وفي المدن الشمالية أثناء الحرب مؤشر على محدودية عملية تحرير العبيد، حتى مع النصر الكامل على الكونفدرالية -ولايات الجنوب. كان على السود أن يقوموا بأشق الأعمال وأكثرها قذارة، كان عليهم حفر الخنادق وتعبئة الأسلحة والمدافع بالذخيرة وحفر الآبار من أجل كتائب البيض.

بلغ يأس الكونفدرالية في أواخر شهور الحرب مبلغًا كبيرًا، حتى إن بعض قادتها اقترحوا تجنيد الزنوج ثم تحريرهم بموافقة مالكيهم وحكومة ولاياتهم، ولكن قبل أن يكون لهذا القانون أي تأثير يذكر كانت الحرب قد انتهت.

أدرك كثير من الزنوج أن وضعهم بعد الحرب، أيًّا كان موقفهم من الناحية القانونية سيعتمد على ما إذا كانوا سيملكون الأرض التي عملوا فيها أم أنهم سيجبرون على أن يكونوا أشباه عبيد لدى الآخرين. صودرت بعض أراض الملاك السابقين في الكونفدرالية بأسباب تتعلق بالانحراف الضريبي، وتم بيعها في المزاد، ولم يكن بمقدور السود، باستثناء قلة قليلة أن يشتروها، ولم يتمكن العبيد السود المحررون إلا من شراء ألفي آكر من بين **١٦** ألف في إحدى مناطق كارولاينا الجنوبية.

فــي بداية عام **١٨٦٥** عقد الجنـــرال وليم تي. شيرمان مؤتمرًا مع عدد من رجال الدين والمسؤولين الزنوج في سافانا بولاية جورجيا، وكان معظم هؤلاء من العبيد السابقين. في المؤتمر أبدى العبيد المحررون أن مصالحهم تقتضي تملكهم للأراضي، فأصدر الجنرال قرارًا بتخصيص الساحل الجنوبي كاملاً والبالغ مساحته ثلاثين ميلا لإنشاء مستوطنة للزنوج، ولم يزد نصيب الأسرة هناك عن أربعين آكر. وفي منتصف العام نفسه انتقل **٤٠** ألف من السود المحررين إلى مزارع جديدة في المنطقة نفسها، غير أن الرئيس أندرو جاكسون -تولى الرئاسة بعد اغتيال لينكولن- استعاد هذه الأراضي لصالح المالكين الفيدراليين وأجبر السود بالقوة على مغادرتها.

العبد السابق توماس هول قال معلقًا على حال السود بعد التحرير: ”لقد حاز لينكولن الثناء لتحريرنا، ولكن هل حقًّا حررنا؟ لقد منحنا الحرية دون أن يمنحنا فرصة كي نعيش لأنفسنا، وكان لابد أن نعتمد على الرجل الأبيض كي نحصل على العمل والغذاء والملبس، ومن ثم فقد أبقانا لينكولن تحت ضغط الحاجة والعوز، في حالة لا تفضُل العبودية كثيرًا“.

في ظل عدة قوانين أصدرها الكونجرس عقب الحرب الأهلية، تقدم زنوج الجنوب إلى الأمام ومارسوا حقهم الانتخابي، وكونوا هيئات سياسية وعبروا بكل قوة عن أنفسهم في القضايا التي تهمهم. وكان الرئيس جاكسون قد حال بينهم وبين ذلك لسنوات طويلة عندما تولى الرئاسة بعد اغتيال لينكولن. وكان جاكسون قد عارض صدور قوانين لمساعدة الزنوج، كما سهل عودة الولايات الكونفدرالية إلى الاتحاد دون أي ضمانات لحقوق الزنوج.

وقد دخل جاكسون في صراعات مع بعض أعضاء مجلس الشيوخ والنواب الذين أيدوا، سواء كان ذلك من إحساس بالظلم الواقع على الزنوج أو كان نتيجة حسابات سياسية، حصول المحررين على حقوق متساوية وكذلك على الحق في التصويت. وقد أوشك النواب على عزله لولا أن العزل تطلب الحصول على موافقة ثلثي مجلس الشيوخ، الأمر الذي تعذر نتيجة عجز في صوت واحد. لكن في الانتخابات التالية نجح المرشح الجمهوري يوليسيس جرانت.

لجأ الكثيرون من بيض الجنوب إلى قوتهم الاقتصادية من أجل تنظيم جماعة كوكلوكس كلان وجماعات إرهابية أخرى، لشن هجمات ضد السود، وقاموا ضدهم بأعمال وحشية راح ضحيتها أعداد كبيرة من السود. وتصاعدت موجة العنف تلك ضد السود في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر.

بينما تصاعدت موجة العنف أصبحت الحكومة تحت حكم الرئيس جرانت، أقل حماسًا في الدفاع عن حقوق السود، كما أصبح من المؤكد أنها ليست على استعداد لتسليحهم. كما مارست المحكمة الدستورية العليا دورًا جديدًا كان يعكس اتحادًا جديدًا بين أصحاب المصانع في الشمال وأصحاب المزارع في الجنوب، ووصل مزاج المحكمة ذروته عندما أصدرت قرارها الشهير باسم "بليسي/فيرجسون"، عندما حكمت بأنه من حق أحد وسائل السكة الحديد ممارسة عزل السود عن البيض إذا تساوت المرافق.

عندما انتهت الحرب الأهلية قامت **١٩** ولاية شمالية بحرمان السود من حق التصويت. وبحلول عام **١٩٠٠** كانت كل ولايات الجنوب قد ضمنت دساتيرها ما يحرم الزنوج من حق التصويت بل وعزلهم عن البيض.

يرى دي بوا وهو مناضل أسود أن خيانة قضية الزنوج في أواخر القرن التاسع عشر إنما هي جزء من مؤمراة أكبر كانت تحدث في الولايات المتحدة، وهي مؤمراة لم تكن موجهة ضد السود فحسب، وإنما -أيضًا- ضد فقراء البيض. كانت تلك من وجهة نظر دي بوا هي الرأسمالية الجديدة.

لقد رأى دي بوا هذه الرأسمالية الجديدة كجزء من عملية استغلال ورشوة تحدث في كل البلاد المتحضرة في العالم، ذلك أن ديكتاتورية رأس المال ابتزت العمال بل وكانت ترشيهم عن طريق رفع الأجور أحيانًا ووضعهم في الوظائف السياسية أحيانًا أخرى، الأمر الذي جعل من السهل استغلال الأيدي العاملة البيضاء والصفراء والسمراء سواء في البلاد المتحضرة أو غير المتحضرة.

هل كان دي بوا على صواب عندما رأى أنه بنمو الرأسمالية الأمريكية، قبل الحرب الأهلية وبعدها، كان البيض والسود على السواء يتحولون إلى عبيد على نحو من الأنحاء؟

الفصل العاشر

الحرب الأهلية الأخرى

فـــي خريف **١٨٣٩** بدأ فلاحو وادي نهـــر هاديسون بالامتناع عـــن دفع إيجار الأراضي. كان المستأجرون يقومون بدفع إيجار الأراضي بالإضافة إلى الضرائب، وكان النصيب الأكبر من الأراضي ملكًا لعائلة رينسيلر التي كانت تتحكم في مصير ما يزيد عن ثمانين ألف مستأجر. نظم المستأجرون أنفسهم في جمعيات مناهضة لنظام الإيجار، كما قدموا التماسًا يطالب بإلغاء نظام الإيجار القائم والذي كان من بين بنوده حصول المالك على أخشاب المزارع. حدثت بعض حالات التمرد وألقت الحكومة القبض على قادتها وتم سجنهم. كانت قوة القانون هي التي سحقت حركة المناهضين للإيجار، وكان الهدف هو أن يفهم الفلاحون أن ليس بإمكانهم أن يكسبوا شيئًا عن طريق الشجار أو التمرد، وأن جهودهم يجب أن تقتصر على الحق في التصويت والطرق القانونية المقبولة إذا أرادوا إصلاحًا لما هم فيه.

فـــي عام **١٨٤٥** انتخب المناهضون للإيجار **١٤** عضوًا للمجلس التشريعي للولاية، وقام حاكم الولاية بتخفيف أحكام الإعدام التي صدرت من قبل على عدد من مناهضي الإيجار. واصل الفلاحون نضالهم من خلال المحاكم، لكنها لم تقدم لهم شيئًا يذكر.

إن القصص التي تتناول حركة مناهضة نظام الإيجار الإقطاعي والتمردات التي حدثت ومقاومة الفلاحين، غير موجودة في الكتب التي تتناول تاريخ الولايات المتحدة، والتي لا تقدم لملايين الطلبة الأمريكيين إلا قليلاً عن الصراع الطبقي في القرن التاسع عشر، في الوقت الذي تمتلئ فيه هذه الكتب بأحداث الانتخابات ونظام الرق والمسألة العرقية. حتى الكتب المتخصصة في الفترة الجاكسونية، فإنها عندما تتناول القضايا الاقتصادية والعمالية، فإنها تركز على دور الرئاسة، وبالتالي فإنها تكرس مبدأ التبعية التقليدية للقادة الأبطال أكثر من التركيز على كفاح الشعب.

كـان جاكسون يقـــول: إنه يدافع عن الأعضاء المتواضعين فـي المجتمع من الفلاحين والحرفيين والعمال. بيد أنه من المؤكد لم يكن يدافع عن الهنود أو عن العبيد، لكن الذي دفعه إلى قول ذلك هو درجات التوتر التي أثارها نظام المصانع الآخذ في النمو والهجرة المتزايدة، الأمر الذي تطلب معه أن تبني الحكومة قاعدة تأييد ودعم شعبية بين البيض، وهذا بالضبط ما حققته الديمقراطية الجاكسونية. فقد تركزت السياسة في هذه الحقبة بدرجة كبيرة حول خلق صورة شعبية ومغازلة العوام.

لقد كان جاكسون أول رئيس يجيد البلاغة الليبرالية من أجل الحديث عن مصلحة الإنسان العادي، إذ كان ذلك ضروريًّا من أجل انتصار انتخابي.

كانت تلك سياسة الغموض الجديدة، التي كانت تتمثل في الدفاع عن الطبقات الوسطى والدنيا للحصول على دعمهم في أوقات الحاجة. لقد جاء النظام السياسي القائم على وجود حزبين في وقته تمامًا، إذ كان ذلك يعطي الناس فرصة الاختيار بين حزبين مختلفين ويسمح لهم، في أوقات التمرد والقلق باختيار أكثر الحزبين ديمقراطية، وهي ديمقراطية لا تكاد تختلف عن ديمقراطية الحزب الآخر. وتلك هي عبقرية هذا النظام التي تهدف إلى السيطرة، ولم يأت ذلك نتيجة تخطيط شيطاني لمتآمرين محترفين، بل كان شأنه شأن كثير من أحداث التاريخ الأمريكي، نابعًا بشكل طبيعي من ظروف أملاها الموقف.

كانت ظروف معيشة الفقراء في تلك الحقبة سيئة للغاية. ولم يكن أمثال هؤلاء الفقراء من الذين تعول عليهم الحكومة كحلفاء سياسيين. كانوا هناك مثل العبيد والهنود، لا يكاد يراهم الأغنياء وأصحاب النفوذ، لكنهم كانوا بركانًا كامنًا تخشى ثورته.

فـــي الوقت نفسه، كان ثمــة مواطنون يمثلون دعــامة قوية للنظام، وهؤلاء هم ذوو الأجور العالية من الموظفين، والفلاحون المالكون للأطيان.

كان هناك -أيضًا- صاحب الياقة البيضاء الذي ينتمي إلى المناطق الحضرية، وهو الموظف الذي يتلقى مرتبًا ضخمًا، ويستطيع قضاء وقت فراغ ممتع، متابعًا أخبار الفن والأدب والرياضة، ومطالعة الصحف الكبرى التي تقوم على الإعلانات وتمتلئ بتقارير البوليس ونصائح الإتيكيت الخاصة بالبرجوازية الصاعدة.

كـان هذا النموذج هـو الحرس المتقـدم لحماية طبقة صاعدة من ذوي الياقة البيضاء في أمريكا، وهي طبقة ستنال مكانة مهمة بحيث يعتبر أفرادها أنفسهم أعضاء من الطبقة البرجوازية ويؤيدونها ويدعمونها في أوقات الأزمة.

كان رأسماليو الشرق على علم بالحاجة إلى التأمين على الثروة، وكان لا بد من ضمان الاستقرار لضمان نجاح الاستثمار، ففي نظام اقتصادي لا يحركه احتياج بشري بقدر ما تحركه الحاجة إلى تحقيق أرباح عالية وبشكل فوضوي، كان من الصعب تجنب الصعود والهبوط الحادين في هذا النظام. كان أحد طرق تحقيق الاستقرار هو تقليل التنافس وتنظيم العمل والتحرك صوب الاحتكار، فتم احتكار عدد من الصناعات الهامة والضخمة عن طريق عدد من الشركات، فتم احتكار السكك الحديدية، وصناعة غزل القطن.

باءت محاولات الاستقرار السياسي والهيمنة الاقتصادية بالفشل التام. فقد أدت الحركة الصناعية الجديدة والمدن المزدحمة وساعات العمل الطويلة والأزمات الاقتصاية التي تسببت في رفع الأسعار، إلى إثارة ردود أفعال الفقراء. كانت ردود أفعال الفقراء متباينة، فأحيانًا كان رد الفعل في شكل انتفاضة تلقائية غير منظمة ضد الأثرياء، وفي أحيان أخرى كان يأخذ شكل كراهية عرقية ضد السود، أو يتمثل في حرب دينية ضد الكاثوليك، أو في صورة غضب ضد المهاجرين الجدد. وفي أحيان قليلة كان رد الفعل منظمًا في شكل مظاهرات وإضرابات.

كانت الديمقـــراطية الجاكسونية قــد حـاولت خلق تعداد سكاني لدعم النظام وتأمينه، وبالطبع كان الهنود والنساء والأجانب خارج هذا التعداد. غير أن كثيرًا من المنتمين إلى الطبقة العاملة من البيض أعلنوا بأعداد كبيرة أنهم خارج نطاق هذا التعداد.

أما عن مدى وعي الطبقة العاملة في تلك السنوات، فقد ضيعته كتب التاريخ، غير أن الشذرات الباقية دلت على مدى وقيمة هذا الوعي. فقد شهدت تلك الفترة تشكيلاً كبيرًا للنقابات. كما شهدت عددًا ضخمًا من التمردات والمظاهرات والإضرابات العمالية. وفي إحدى مؤتمرات العمال خطب فيهم أحد خطباء الحركة العظام وهو **سيث لوثر قائلاً:** سوف نجرب صندوق الانتخابات أولاً، وإذا لم يفلح في أن يأتي لنا بحقوقنا، فسيكون البديل الآخر والأخير هو صندوق الذخيرة.

في بداية الأربعينيات من القرن التاسع عشر، نما عداء بين العمال الأيرلنديين -المهاجرين الجدد- الكاثوليك وبين نظرائهم من البروتستانت أبناء البلد حول قضايا دينية، حيث حطم أبناء البلد عدة منازل وهاجموا كنيسة للكاثوليك. لم يلبث سياسيو الطبقة الوسطى أن قادوا الجماعتين المعاديتين إلى الحزبين القائمين بالبلاد، حيث انضم أبناء البلد البروتستانت إلى الحزب الجمهوري، وانضم الأيرلنديون الكاثوليك إلى الحزب الديمقراطي، وبذلك حلت سياسة الأحزاب والقضايا الدينية محل الصراع الطبقي. ويقول أحد المؤرخين: إن تلك الأحداث بين العمال -أبناء البلد والأيرلنديين- أدت إلى تفتيت الطبقة العاملة.

كما شهدت تلك الفترة إضربات للنساء العاملات خاصة في مصانع لويل للنسيج، احتجاجًا منهن على سوء ظروف العمل وقسوتها، وتدني الرواتب وزيادة ساعات العمل.

في دراسته "الطبقة والمجتمع" **يقول المؤرخ ألن دولي:** إن السبب الذي لم يجعل الروح الطبقية تؤدي إلى عمل سياسي ثوري مستقل، هو أن العملية الانتخابية قامت بامتصاص طاقات المعارضين والمقاومين، وتوزيعها على قنوات النظام. يري دولي وجودًا شبه دائم لأقلية لعبت الدور الرئيس في تنظيم سخط الناس ومقاومتهم، ولما كان العمال الأمريكيون قد حصلوا على الديمقراطية السياسية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، فقد تولت الأحزاب السياسية قضايا هؤلاء العمال الاقتصادية، وكان أن قامت هذه الأحزاب بإخفاء الفواصل الطبقية والسكوت عنها أو التحايل عليها.

ويقول دولي: إنه لولا جيل بأكمله تعرض للتشتيت في ستينيات القرن التاسع عشر بسبب الحروب الأهلية، لما استطاع النظام السياسي أن ينال من النضال العمالي وازدهار الوعي الطبقي. لقد أصبح العمال الشماليون، الذين أيدوا قضية اتحاد العمال، متحالفين مع أرباب عملهم، وتمت الغلبة للقضايا القومية على حساب القضايا الطبقية.

لـقد كان من شأن الوحدة السياسيـــة والعسكرية، التي قامت أثناء أزمة الحرب الأهلية وكان قوامها السلاح والبلاغة الحماسية، أن تطمس الوعي الطبقي. كان الشعار المرفوع في هذه الحرب أنها حرب من أجل الحرية، لكن في حقيقة الأمر لو تجرأ أحد العمال على الإضراب، كان يتعرض لهجوم الجنود، ومن المعروف أن الهنود الغاضبين تعرضوا لمذابح في كلورادو على أيدي الجيش الأمريكي، كما أنه تم سجن من تجرءوا بالنقد لسياسات لينكولن دون محاكمات، حتى بلغ عددهم **٣٠** ألف سجين. غير أن ذلك لم يمنع وجود علامات على سخط الفقراء على الأثرياء، وتمرد القوى المهمشة على القوى السياسية والاقتصادية المهيمنة.

مع تزايد صعوبة الحياة بالنسبة للعمال ومشقة العيش حاول اليائسون منهم السفر إلى أوروبا أو أمريكا الجنوبية. وفي عام **١٨٧٨** غادرت إحدى السفن الولايات المتحدة وهي مملوءة عن آخرها بالعمال، متجهة إلى أمريكا الشمالية، لكنها غرقت في الطريق هي وكل من عليها. وتسبب ذلك في حالة من المظاهرات والإضرابات نظمها العمال احتجاجًا على ما يحدث لهم. وحدثت الكثير من التمردات والإضربات التي حاولت القوات العسكرية إنهاءها بالقوة ما تسبب في حدوث اشتباكات عنيفة راح ضحيتها أعداد كبيرة من العمال.

الفصل العاشر

الحرب الأهلية الأخرى

في عام **١٨٧٧** ظهرت إشارات تدل على كيفية مسار السنوات الباقية من ذلك القرن, إذ سيزيد تراجع السود إلى الوراء، وستواجه إضرابات العمال البيض بحسم أشد. أما النخب السياسية والصناعية -مع تطور الصناعة واستخدام البخار والكهرباء محل الجهد البشري- فسوف تحكم قبضتها على البلاد شمالها وجنوبها وستقوم بتأسيس أضخم مسيرة للنمو الاقتصادي في تاريخ الجنس البشري. وقد قامت هذه المسيرة على أكتاف, وعلى حساب، الأيدي العاملة من السود والبيض والنساء والصينيين والأوروبيين المهاجرين، وقد تمت مكافأة كل من هؤلاء على نحو مختلف حسب الجنس والعرق والأصل القومي والطبقة الاجتماعية، الأمر الذي ضمن خلق مستويات مختلفة من القهر والظلم، وتلك طريقة ماهرة تضمن استقرار هرم الثروة.

خلال تلك الحقبة قام الكثير من الأثرياء -المسيطرون والمحتكرون للاقتصاد، في كافة المجالات مثل: الحديد والصلب والنسيج والسكك الحديد إلخ- بتأسيس وتمويل عدد من الكليات والجامعات. قام كونويل بتأسيس جامعة تيمبل، وتبرع روكفيلر لبناء كليات كثيرة في ولايات مختلفة، كما ساهم في تأسيس جامعة شيكاغو. وقدم هانتجتون صاحب شركة سينترال باسيفيك للسكك الحديدية عونًا ماديًّا لكليتين من كليات الزنوج ولمعهدي هامبتون وتاسكيجي. وكذلك تبرع كارنيجي بأموال كثيرة للكليات والمكتبات. وأسس أحد التجار الأثرياء جامعة هوبكنز.

لقد أصبح الأغنياء عن طريق تبرعهم بجزء من ثرواتهم الكبيرة، معروفين بأنهم محسنون ومحبون لأفعال الخير. وبالطبع لم تكن هذه المؤسسات التعليمية تشجع على الغضب والتمرد فقد كانت تعلم المتوسطين في النظام الأمريكي، أي المدرسين والأطباء والمحامين والمهندسين والساسة؛ أي أولئك الذين سيتلقون رواتب مقابل أن يحافظوا على استمرار النظام وأن يكونوا حائط صد ضد الاضطرابات.

في الوقت نفسه، ساعد انتشار تعليم المدارس على التمكن من محو أمية جيل كامل من العمال الذين أصبحوا الطاقة الكبرى للعصر الصناعي. لقد كان من المهم أن يتعلم هؤلاء الناس إطاعة السلطة. وأصبح كتاب إدارة الفصل المدرسي الذي وضعه وليم باجلي الكتاب الأمثل لتدريب المدرس حتى في القرن العشرين، حيث أعيد طبعه ثلاثين مرة. يقول باجلي: بإمكان من يدرس النظرية التعليمية كما ينبغي أن يرى في النظام الروتيني للفصل المدرسي كيف تتكاتف القوى التعليمية لتقوم في بطء تدريجي بتحويل الطفل من همجي صغير إلى مخلوق يعرف القانون والنظام ويصير لائقًا لحياة المجتمع المتحضر.

وقامت المدارس الثانوية في منتصف وأواخر القرن التاسع عشر كوسائل مساعدة للنظام الصناعي، وزادت الحاجة إلى دخول مادة التاريخ في المناهج الدراسية من أجل تقوية النزعة الوطنية. وكثر الحديث عن أشياء مثل أيمان الولاء، وشهادة المدرس عن سلوك الطلاب وطلب المواطنة. وكان ذلك من أجل إحكام السيطرة على الفكر السياسي والتعليمي لدى المدرسين. كما تم منع تدريس كتب معينة، على سبيل المثال الكتب التي تتناول المذاهب السياسية. في مقابل هذا التنظيم الضخم للمعرفة والتعليم، نهض أدب للسخط والاحتجاج عرف طريقه من قارئ لآخر، واشتهر كتاب "التقدم والفكر" للكاتب هنري جورج، الذي كان فكرته الأساسية أن الأرض هي أساس الثروة، والأرض محتكرة من قبل فئة محددة، وأن فرض ضريبة واحدة على الأرض مع إلغاء كافة الضرائب الأخرى كفيل بأن يشكل موردًا ماليًّا يحل مشكلة الفقر ويقرب بين طبقات الأمة.

وكان ثمة نوع آخر مختلف لتحدي النظام الاقتصادي والاجتماعي القائم تمثل في قيام المحامي إدوارد بيلامي بكتابة رواية "النظر إلى الوراء" وفيه ينام البطل ويصحو في عام ٢٠٠٠ كي يجد أمامه مجتمعًا اشتراكيًّا يعيش فيه الناس في تعاون. وقد باعت الرواية التي تصف الاشتراكية في وضوح محب، ملايين النسخ في سنوات قليلة وكان أن أسهمت في تشكيل حوالي مائة جماعة في مختلف أرجاء الولايات المتحدة، وكان همّ هذه الجماعات هو تحقيق الحلم الذي تتناوله الرواية.

كـــان باديًا أنه بالرغم من الجهود الضخمة للحكومة والنخبة الثرية والكنيسة كان بعض رعاة الكنيسة أمثال راسل كونويل يروجون أن فقر الشخص عقابًا له من الرب نتيجة خطاياه- والمدارس للسيطرة على تفكير الأمريكيين، كان ملايين منهم على استعداد دائم للنظر في النقد القاسي الموجه للنظام السياسي القائم والبحث عن سبل أخرى للعيش. ساعد على ذلك الحركات الكبرى للفلاحين والعمال التي اكتسحت البلاد في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر. كانت هذه الحركات مجاوزة للإضرابات المتفرقة وكفاح المستأجرين في الفترة ما بين **١٨٣٠** و **١٨٧٧** إذ كانت حركات على مستوى البلاد كلها وكانت أكثر تهديدًا للنخبة الحاكمة كما كانت موحية بالخطورة. كان ذلك زمن تصدرت فيه التنظيمات الثورية المدن الرئيسية في البلاد وكان الكلام ذو الخطاب الثوري موجودًا في كل مكان.

تم تأسيس العديد من رابطـــات وجمعيات العمــــال التي دعت إلى الكثير من الإضرابات والتي شارك فيها آلاف من العمال، لكن كان يتم قمع وإنهاء الإضرابات بكل قوة وباستخدام القوى العسكرية. كما تم إعدام بعض قادة العمال -قادة مظاهرة هاي ماركت- وحبس أعداد ضخمة من العمال. كما كان يتم طرد أعداد من العمال المضربين واستبدالهم بعمال من المهاجرين الجدد من قبل الحكومة وأصحاب المصانع -كان يتم إطلاق لقب "مفسدو الإضرابات" على المهاجرين الجدد لحلولهم في العمل مكان العمال المضربين من أهل البلد. لكن رغم ذلك لم تتوقف الإضرابات والمظاهرات، وواصل العمال احتجاجهم من أجل تحسين أوضاعهم وتقليل ساعات العمل وزيادة رواتبهم.

فــي صيف عام **١٨٨٦** تجمع أعضاء رابــطة المزارعين في مدينة سليبورن وقاموا بوضع ما عرف باسم "مطالب سليبورن" وهي أول وثيقة لحركة حزب الشعب تطالب بتشريع يضمن للناس عدم التعرض للانتهاكات المشينة التي تعانيها الطبقات العاملة على أيدي الرأسماليين المتغطرسين والهيئات الاقتصادية العملاقة.

استمرت الرابطة في النمو والانتشار وبلغ عدد أعضائها مئات الآلاف. كانت هذه الرابطة كما وصفها البعض "أكبر قوة منظمة في أمريكا في القرن التاسع عشر، تقوم فكرتها على التعاون، أي فلاحون يقومون بتشكيل ثقافتهم الخاصة وأحزابهم الخاصة مكتسبين احترامًا لم يمنحه لهم قادة الأمة البارزين في الصناعة والسياسة على السواء". بعد ذلك تحولت تلك الرابطة إلى حزب سياسي هو حزب الشعب.

صار هناك حزب سياسي جديد -حزب الشعب- أخذ على عاتقه توحيد الجماعات المختلفة والمتنوعة، فقد وحد بين الجمهوريين الشماليين والديمقراطيين الجنوبيين، ووحد بين عمال المدن ومزارعي الريف، كما وحد بين السود والبيض.

لا شك أن الشعبيين كانت لديهم -كمعظم الأمريكيين البيض- عنصرية في تفكيرهم. غير أنهم لم ينظروا إلى العرق بوصفه مهمًّا كأهمية النظام الاقتصادي.

الفصل الثاني عشر في انتخابات **١٨٩٦** ومع وقوع الحركة الشعبية تحت غواية الحزب الديمقراطي بعد تحالفه معه في الانتخابات، ذابت الحركة الشعبية داخل الحزب الديمقراطي. لقد جلبت سياسة الانتخابات سماسرة سياسيين إلى قمة قيادة الحركة بدلاً من أن يكون على قمتها الراديكاليون، والذين كانوا يعارضون التحالف مع الديمقراطيين لأنه سيجعلهم يخسرون أهم شيء يحتاجونه وهو أنهم يمثلون حركة سياسية مستقلة.

الفصل الثاني عشر

الإمبراطورية والشعب

فـــي عام **١٨٩٧** كتب تيودور روزفلـت إلى صديق: "يجب علي أن أرحب بكل ثقة، بأي حرب لأنني أعتقد أن بلدنا في احتياج إليها". وفي عام المذبحة التي وقعت في ووندد ني **١٨٩٠**، أعلن مكتب الإحصاء رسميًّا بأن الجبهة الداخلية قد أغلقت وأن نظام الأرباح بميله الطبيعي إلى التوسع، قد بدأ بالفعل يتطلع إلى ما وراء البحار، ومن المعروف أن الأزمة الاقتصادية التي بدأت في عام **١٨٩٣** قد دعمت فكرة كانت تتطور داخل النخبة السياسية والاقتصادية في البلاد مفادها أن الأسواق الخارجية التي تستوعب البضائع الأمريكية من الممكن أن تخفف من المشاكل الاقتصادية للبلاد وتمنع حدوث الأزمات الاقتصادية التي أدت إلى حرب طبقية في تسعينيات القرن التاسع عشر.

ألن يكون حـــريًّا بمغامرة خارجية أن تصرف الطاقة المتمردة التي ظهرت في الإضرابات وحركات الاحتجاج إلى عدو خارجي؟ ألن يوحد أمر كهذا بين الشعب وبين الحكومة والقوات المسلحة بدلاً من أن يعاديها؟ ربما لم تكن هذه خطة واعية بين معظم أفراد النخبة، لكنها كانت تطورًا طبيعيًّا للتوأمين: الرأسمالية والقومية.

لم يكن التوسع في ما وراء البحار بالشيء الجديد، فقد اتجه مذهب مونرو إلى الجنوب صوب الكاريبي بل وإلى ما هو أبعد من ذلك. فقد أعلن هذا المذهب أن الولايات المتحدة تعتبر أمريكا اللاتينية مجالاً لنفوذها. كما بدأ بعض الأمريكيين في التطلع إلى اليابان والأسواق الكبرى في الصين. وكانت القوات المسلحة قد بدأت في غاراتها في ما وراء البحار. ثمة قائمة أصدرتها وزارة الخارجية تشمل حالات لجوء الولايات المتحدة إلى القوات المسلحة (**١٧٩٨ - ١٩٤٥**)، وتكشف القائمة عن **١٠٣** تدخل في شؤون البلاد الأخرى من عام **١٧٩٨** إلى عام **١٨٩٥**.

بحلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر، كانت هناك خبرة كبيرة في مجال التدخلات والمغامرات فيما وراء البحار. كانت أيديولوجية التوسع منتشرة بين الدوائر العليا للعسكريين والسياسيين ورجال الأعمال، وحتى بين زعماء حركات المزارعين الذين اعتقدوا أن الأسواق الأجنبية من شأنها أن تحل بعض مشاكل المزارعين.

قبل سنوات عدة من انتخابه رئيسًا للبلاد **قال وليم ماكنلي:** "نريد سوقًا أجنبية للفائض من منتجاتنا". وأعلن أحد الساسة في عام **١٨٩٧** أن المصانع الأمريكية تنتج أكثر مما يحتاجه الأمريكيون، والأراضي الأمريكية تنتج أكثر مما يستهلك الناس. وأضاف الرجل: "لقد كتب القدر سياستنا، إن التجارة في العالم لنا، وسوف تظل كذلك".

عندما لم تقم الولايات المتحدة بضم هاوايي **١٨٩٣**، أطلق روزفلت على هذا التردد وصف "جريمة ضد الحضارة البيضاء" وأضاف "دائمًا ما كانت الأجناس العظيمة أجناسًا مقاتلة. وإن انتصارًا سلميًّا لا يداني في عظمته انتصارًا حربيًّا". كان روزفلت يحتقر الأجناس والأمم التي يعتبرها أقل مرتبة. وكان روزفلت يرى أن السلام يشي بالخنوع والخسة ولايليق إلا بالضعفاء.

القبول بالتوسع كان يصير قويًّا إذا بدا التوسع وكأنه فعل كريم كمساعدة جماعة متمردة في الإطاحة بحكم أجنبي مثل الحال في كوبا. في عام **١٨٩٨** كان المتمردون الكوبيون يحاربون غزاتهم الإسبان لثلاث سنوات في محاولة تحقيق الاستقلال. في ذلك الوقت كان من الممكن خلق مزاج قومي يبرر التدخل بيد أن مصالح العمل الخاصة بالأمة لم تكن في البداية في حاجة إلى التدخل العسكري في كوبا. فالتجار الأمريكييون لم يحتاجوا مستعمرات ولا حروبًا للغزو طالما وصلوا إلى الأسواق المنشودة، ومن هنا أصبحت فكرة "الباب المفتوح" هي المهيمنة على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن العشرين. كانت هذه الفكرة مختلفة عن البناء التقليدي للإمبراطوريات على النمط الأوروبي. كان هذا التفضيل من جانب بعض رجال الأعمال والسياسيين لما يسمى "الإمبراطورية غير الرسمية" التي تقوم دون حرب دائمًا موضع تغيير. فلو ثبت أن الإمبريالية المسالمة مستحيلة، فلا مانع من استخدام الإجراء العسكري.

منذ بداية تمرد الكوبيين كان رجال الأعمال الأمريكيون مهتمين بالإمكانيات التجارية للجزيرة. وقد كان التأييد الشعبي للثورة الكوبية قائمًا على فكرة أنهم مثل الأمريكيين في عام **١٧٧٦**، كانوا يخوضون حربًا من أجل التحرير، أما الحكومة الأمريكية، وهي النتاج المحافظ لحرب ثورية، فكانت الأرباح والقوة تشغل ذهنها وهي تشاهد ما يحدث في كوبا. لكن لم تعترف أمريكا بأن المتمردين كانوا محاربين. مثل هذا الاعتراف القانوني كان من شأنه أن يمكن الولايات المتحدة من مساعدة المتمردين دون حاجة لإرسال جيش، ولكن كان هناك تخوف أن ينتصر المتمردون وتبقى الولايات المتحدة خارج الصورة. كما كان هناك تخوف من أن يؤدي النصر إلى وجود جمهورية للبيض وجمهورية للسود، لوجود خليط من الجنسين في كوبا، وربما تكون الجمهورية السوداء هي المسيطرة، كما حدث في هايتي.

في فبراير **١٨٩٨** انفجرت السفينة الأمريكية "مين" وهي في ميناء هافانا، وكان وجودها كرمز على الاهتمام الأمريكي بما يحدث في كوبا. لم يظهر أي دليل على الانفجار لكن بدأ حينها الرئيس ماكينلي يتحرك باتجاه الحرب. وبدأت بعض الصحف تنادي للحرب.

بدأ الرئيس ماكينلي ومجتمع البيزنس يرون أن هدفهم الأول -إخراج إسبانيا من كوبا- لا يمكن تحقيقه دون الحرب، وأن الهدف الثاني -تأمين النفوذ العسكري والاقتصادي لأمريكا في كوبا- لا يمكن تركه بأيدي المتمردين الكوبيين ولكنه مضمون عن طريق التدخل الأمريكي.

كانت النقابات العمالية متعاطفة مع المتمردين الكوبيين، ولكنهم عارضوا التوسع الأمريكي. كما عارض الاشتراكيون الحرب، وكان الاستثناء الوحيد تمثله جريدة "ديلي فوروارد" اليهودية.

مع إعلان الحرب واندلاعها تم هزيمة الإسبان في ثلاثة شهور. تظاهر حينها الجيش الأمريكي بأن جيش المتمردين الكوبيين غير موجود. وعندما استسلم الإسبان، لم يسمح لأي كوبي بالتفاوض، كما تم منع المسلحين الكوبيين من دخول العاصمة، وأعلن القائد الأمريكي بأن السلطات الإسبانية القديمة، وليس المتمردين سوف يظلون مسؤولين عن إدارة المكاتب المحلية في العاصمة سانتياجو.

كان ثمة شيء آخر دخل كوبا جنبًا إلى جنب مع الجيش الأمريكي، كان رأس المال الأمريكي. تسلم الأمريكيون السكك الحديدية والمناجم وحقول قصب السكر ومصانعه عندما انتهت الحرب، وصار **٨٠٪** من صادرات كوبا من المعادن في أيدي أمريكية.

أثناء الاحتلال العسكري وقعت سلسلة من إضرابات العمال تعرضت للقمع على أيدي الأمريكيين. لم تقم الولايات المتحدة بضم كوبا، ولكن أبلغ الكوبيون أن جيش الولايات المتحدة لن يغادر كوبا قبل أن تضم كوبا تعديل "بلات" الذي أقره الكونجرس **١٩٠١** إلى دستورها. كان هذا التعديل يعطي الولايات المتحدة الحق في التدخل للحفاظ على الاستقلال الكوبي وللمساعدة في إقامة حكومة سليمة تحافظ على حياة الفرد وممتلكاته وحريته الفردية، كما أعطى هذا التعديل الولايات المتحدة الحق في الحصول على بعض المواقع البحرية ومناجم الفحم في أماكن معينة.

أدان مناهضو الإمبريالية في الولايات المتحدة ذلك التعديل. وخرجت المظاهرات في هافانا رافضة التعديل، كما رفض المؤتمر الكوبي ذلك التعديل. لكن بعد ثلاثة أشهر من الضغوط الأمريكية في ظل الاحتلال، ورفضهم أن يقوم الكوبيون بتشكيل حكومتهم، اضطر المؤتمر إلى تبني تعديل بلات.

وبهذا دخلت كوبا إلى المجال الأمريكي ولكن ليس كمستعمرة صريحة. كما أدت الحرب الإسبانية الأمريكية إلى عمليات ضم مناطق جديدة للولايات المتحدة، مثل بورت ريكو، وجزر هاوايي.

كررت الولايات المتحدة ما حدث في كوبا مع الفلبين، لكن في فبراير **١٨٩٩** ثار الفلبينيون على الحكم الأمريكي، كما ثاروا من قبل على الحكم الإسباني.

كتب الرئيس ماكينلي عن ضم الفلبين عدة أسباب ذكر منها "كي نعلم الفلبينيين ونرتقي بهم ونمدنهم ونحولهم إلى المسيحية، ونفعل ما في وسعنا لهم كإخوة لنا مات المسيح من أجلهم أيضًا".

احتاجت الولايات المتحدة ثلاث سنوات لردع التمرد في الفلبين، وكان هناك آلاف الضحايا الذين قتلوا في المعارك. وشهدت عداء عرقيًّا وعنصريًّا ضد الفلبينيين. وتم إبادة قرى كاملة بسكانها في وحشية شديدة أدانها مناهضو الإمبريالية في الولايات المتحدة.

الفصل الثالث عشر

التحدي الاشتراكي

قد تقوم الحرب أو الوطنية المفرطة بتأجيل الغضب الطبقي النابع من حقائق الحياة اليومية، ولكن هذه أو تلك لا يمكن أن تخمده تمامًا. فمع بداية القرن العشرين ظهر هذا الغضب من جديد. وظهر عدد من الكتاب والأدباء دافعوا عن الاشتراكية وانتقدوا النظام الرأسمالي بقسوة. وفي هذه الأثناء أخذت النقابات في النمو، وأصبح هناك أكثر من ٢ مليون عضو في اتحادات العمال، وكان ٨٠٪ منهم في اتحاد العمال الأمريكي، الذي كان عبارة عن اتحاد غالبيته من الرجال البيض وأصحاب المهارات. وكان السود خارج تشكيلات الاتحاد. كانت العنصرية تسود اتحاد العمال الأمريكي حيث كانت النساء والأجانب مستثنيين من الاتحاد. كانوا في نظر الاتحاد لا يملكون مهارة كافية والفيدرالية مقتصرة على ذوي المهارات.

في هذه الظروف ومع تردي أحوال العمال تجمع في شيكاغو ٢٠٠ من الاشتراكيين والثوريين وقرروا تشكيل ما عرف بمنظمة "عمال العالم". كانت المنظمة تهدف إلى تنظيم كل العاملين في كل مجال من مجالات الصناعة في اتحاد واحد كبير لا يهتم بالجنس أو العرق أو المهارة. كان أعضاء "عمال العالم" مناضلين شجعانًا، على الرغم من السمعة التي عرفت عنهم من خلال الصحافة، فهم كانوا لا يرغبون في اختلاق العنف. ولكن يؤكدون على الدفاع عن النفس إذا تم الهجوم عليهم، لقد نظموا إضرابًا في شركة للصلب، وتحدوا الأمن، ووعدوا بأن حياة أي فرد من الأمن أمام أي فرد يقتل منهم، وبالفعل قُتل ثلاثة من الأمن مقابل أربعة من المضربين.

كانت المنظمة تدعو إلى الإضراب العام وتكاتف العمال وقال أحدهم: "**إذا أراد العمال أن ينتصروا فما عليهم سوى الاتحاد. ليس عليهم إلا أن يعقدوا أيديهم وسيتوقف العالم، إن العمال وأيديهم في جيوبهم أكثر قوة من كل ما يملكه الرأسماليون**".

لقد كانت نظرية قوية بشكل هائل، وفي غضون ١٠ سنوات على مولدها أصبحت الحركة تمثل خطرًا كبيرًا على الرأسمالية. شنت الحكومة عليهم هجومًا شديدًا وأصدرت السلطات الداخلية قوانين لمنعهم من التحدث، لكنهم تحدوا كل ذلك وواصلوا نضالهم. في مدينة مونتانا تم القبض على الكثير منهم حتى أصبحوا يعوقون الحركة بالسجون والمحاكم، الأمر الذي أجبر المدينة على إلغاء الحكم عليهم بعدم الكلام.

نظم "عمال العالم" العديد من الإضرابات والاحتجاجات. وحاولت الحكومة إنهاء حركتهم بإلقاء القبض على قادتهم، لكن كان يحل محلهم آخرون بسرعة.

خرجت الاشتراكية من دوائر المهاجرين من اليهود والألمان الاشتراكيين الذين كانوا يتحدثون لغتهم ثم أصبحوا أمريكيين. مع الوقت أصبح الاشتراكيون أكثر نجاحًا في صناديق الانتخابات، ودفعوا بمرشحيهم في شتى الانتخابات. وكانت النساء الاشتراكيات نشيطات في الحركة النسائية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ساعدت قوة الاشتراكيين ومنظمة عمال العالم والنقابات في عملية الإصلاح الخاصة بالعمال، وبدأت عملية تحسين العلاقات بين أصحاب رأس المال والعمال قام بها رالف إيسلي في عام ١٩٠٠ من خلال تشكيل الاتحاد المدني. كانت وجهة نظر الاتحاد أن النقابات أصبحت حقيقة حتمية وأنه من الأفضل الاتفاق معها وليس محاربتها، فمن الأفضل التعامل مع كيان محافظ وليس مع كيان مسلح.

بدا أن الحركة التقدمية، سواء قادها مصلحون أو محافظون، بدا أنها تتقي خطر الاشتراكية. وكانوا يسعون إلى معالجة العيوب والأحوال التي تكسب الاشتراكية نجاحًا كبيرًا. ونجحت تلك الإصلاحات في المحافظة على استقرار النظام الرأسمالي عن طريق إصلاح عيوبه واستعادة بعض السلام الطبقي. لكن -أيضًا- الحزب الاشتراكي استمر في نموه واستمرت منظمة عمال العالم في التحريض والمطالبة بمزيد من حقوق العمال.





هدية العدد 26 من مجلة كلمة حق ، سبتمبر 2019